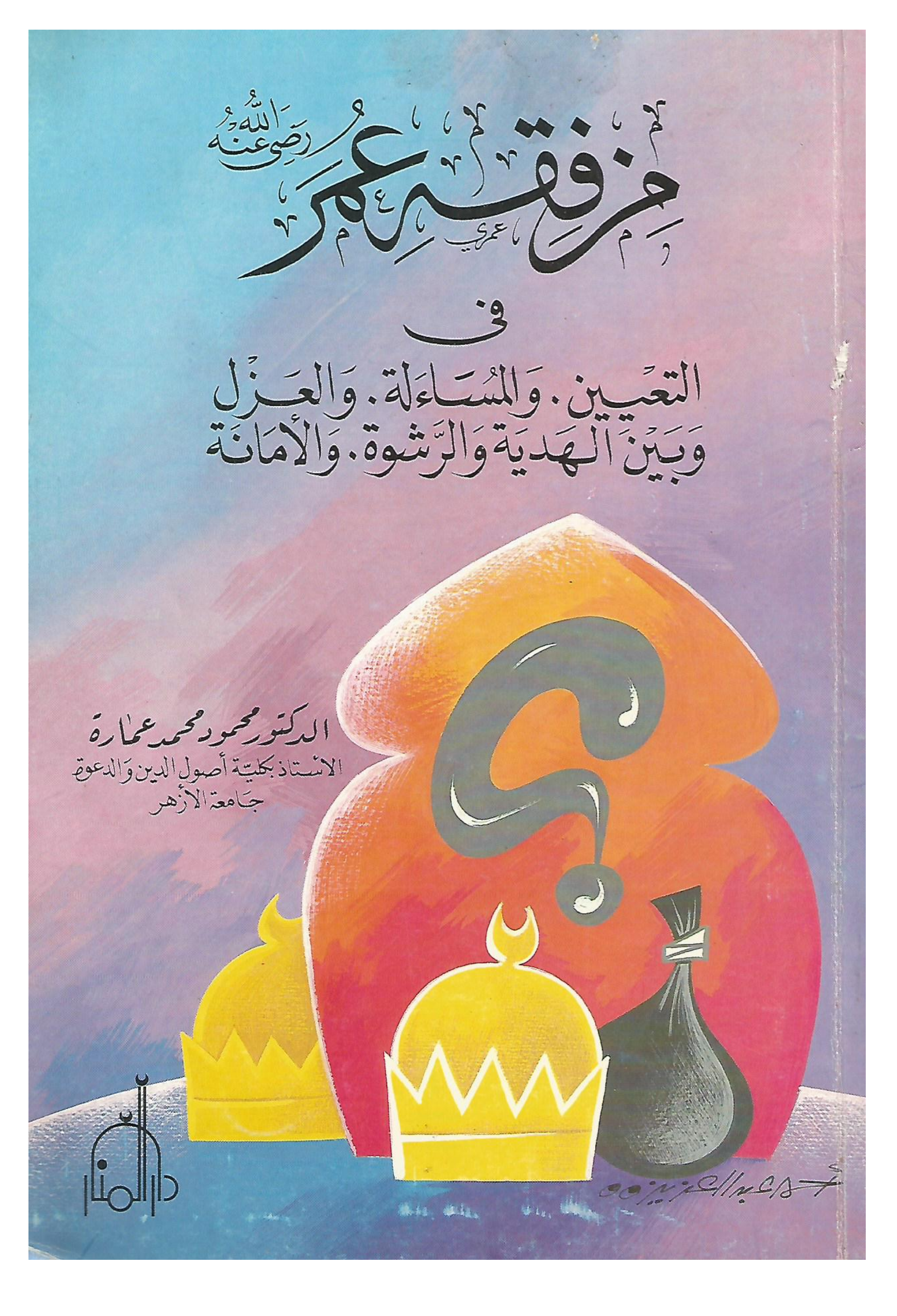

من فقه عمر رضي الله عنه
في
التعيين. والمساءلة. والعزل
وبين الهدية والرشوة. والأمانة
الدكتور محمود محمد عمارة
الأستاذ بكلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر
دار المنار


بسم الله الرحمن الرحيم


من فقه عمر رضي الله عنه
في
التعيين. والمساءلة. والعزل
وبين الهدية والرشوة. والأمانة

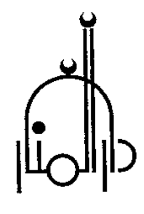
الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

دار المنار
للطبع والنشر والتوزيع
٩ شارع الباب الأخضر - ميدان الحسين
ص ب ٦١ هليوبوليس ت ٩١٥٠٨٥

الدكتور محمود محمد عمارة
الأستاذ بكلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر





بسم اللّه الرحمن الرحيم

تمهيد

عن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول ﷺ : « كلكم راع . وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير راع على رعيته . ومسئول عنهم . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم . والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنه . والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه » .

يشير الحديث الشريف إلى عموم المسئولية .. التى لم تعف أحداً من تبعاتها : من القاعدة إلى القمة . لكن الحاكم يتحمل هنا أوفى نصيب منها .. على قدر خطورة موقعه ، ويتحملها معه كل من عينه فى وظيفة ما .. وبهذا المعنى يصبح رئيس الدولة – فى شخص عماله – مسئولا أمام اللّه تعالى عن كل شاردة فى الدولة وواردة . مما لا يخطر على بال أحد أنه مسئول عنه .

وكان عمر رضى اللّه عنه يقول : (لو ضاع عنَاق على شط نهر العراق لكنت مسئولاً عنه) [١] بل إن إحساسه بالمسئولية ليبلغ مداه حين يعلن أنه : لو عثرت شاة بالعراق لكان مسئولاً عنها لِمَ لَمْ يسو لها الطريق .

ومن هنا كانت الخطوة الأولى على طريق العدل هى : حسن اختيار الأعوان . وفى مقدمتهم هيئة المكتب !

إن كاتب الخليفة .. لسانه .

---

(١) العناق : الأنثى من ولد المعز قبل استكمال الحول . والمراد : أنه مسئول عن اختيار عماله ونوابه .

وصاحبه .. وجهه .

وعونه .. يده .

ولقد أحسن عمر رضى اللّه اختيار : لسانه .. ووجهه .. ويده ! فكان عهده عهد خير وبر .

يقول « أبو بكر المرادى » فى كتابه « السياسة » [1] من أوصاف المستشار :

(أن يكون عاقلا فطنا . فإن الأحمق الجاهل ، إذا استشرته ، زادك فى لبسك ، وادخل عليك التخليط فى رأيك .

وأن يكون محبا صافيا ، حتى تأمن غشه ، ويجتهد فى نصحك ، وينظر فى أمرك بجميع أجزاء قلبه .

وألا يكون حاسداً ، فإن الحسد يبعث أهل المحبة على البغضة ، وأهل الولاية على البعد والفرقة .

وهو يشترط فى الكاتب - وهو فى رتبة الوزير - أن يكون فى غاية العدالة والنزاهة ، والمعرفة بالفقه والفصاحة . لأن الكاتب الماهر يصور الحق فى صور الباطل ، والباطل فى صورة الحق .

ويتطلب من الحاجب أن يكون سهل الوجه ، لين العريكة ، سالم الجوارح من كل آفة ، عارفاً بالناس ومنازلهم واقدارهم .

أما العون - المساعد - فإنه مفتقر إلى أربع خصال : الشدة ، والسياسة ، والصدق ، والطاعة .

وهو بحاجة إلى السياسة ، ليضع كل أمر فى موضعه الصحيح . واحتياجه إلى الصدق .. لما يتصرف فيه من الاخبار ، وما ينقله من الصور والتقارير .

---

(١) تحقيق د . على سامى النشار .

ويختم « المرادى » هذا الباب بقوله :

(من لا يحسن اختيار كتابه وحجابه وأعوانه ، فأحرى ألا يحسن التصرف فى سلطانه) .

وإذن .. فإن معترك المسئولية فى إختيار الأعوان . ومهما كان الحاكم عادلا . أميناً ، خبيراً بشئون الدولة ، فإن مسئوليته لا تتم إلا بالتوفيق فى اصطفاء الأعوان الامناء القادرين على الوفاء بحاجات الرعية .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة توفر عنصرى الكفاءة والأمانة فيمن يقع عليه الاختيار : يقول سبحانه : ﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ (٢) ، ونلاحظ أن الآية الأولى قدمت القوة أو الخبرة على العنصر الأخلاقى وهو الامانة . فى حين تقدم العنصر الأخلاقى على الخبرة فى آية يوسف .. وربما جاز لنا أن نقول : إن المطلوب فى الموظف الجديد أولا أن يكون خبيراً بشئون موقعه .. وهو موضوع تحت رقابة أعلى منه تلزمه الأمانة فى مباشرة عمله .. فهو منها على حذر ..

أما الرجل القيادى على مستوى الوزارة ، فإن السلطات الواسعة التى منحت له ربما زينت له الانحراف ، من حيث لا رقيب عليه ، فكان لابد من ضمانة الاخلاق فراراً من الآثار الوخيمة المترتبة على انحراف المسئول الكبير .

يقول صاحب المنار : (٣)

قالوا : تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والاهب الوافرة والأسلحة الجيدة . قلنا : نعم ، هى إحراز وآلات لابد منها للعمل فيما يقى البلاد ، ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأى وحكمة

---

(١) القصص : ٢٦ (٢) يوسف : ٥٥ (٣) تفسير آل عمران : ٧ .

يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب ، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوى التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شئون المملكة ، يوطئون طرق الأمن ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التى تليق بها بينها ، بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها ، ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشئون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها ، وحى تكون الحمية ضاربة فى نفوسهم آخذة بطباعهم ، يجدون فى أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجراً عما لا يليق بهم ، وغضاضة وألما موجعاً عندما يمس مصلحة المملكة ضرر ويوجس عليها من خطر ، ليتيسر لهم بهذا الإحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم - كما ينبغى - ويصونوها من الخلل الذى ربما يقضى قليله إلى فساد كبير فى الملك ، فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة .

« يسهل على أى حاكم فى أى قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ، ولكن من أين يصيب بطانة من اولئك الذين أشرنا إليهم : عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم ؟ لابد أن يتبع فى هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ، ويراعى ناموس الطبيعة ، فإن متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفايات الدقائق ، وقلما يخطئ فى رأيه أو يتأود فى عمله من أخذ به دليلا وجعل له من هديه مرشداً . وإذا نظر العاقل فى أنواع الخطأ التى وقعت فى العالم الإنسانى من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله فى خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية ، إنما تكون لمن له فى الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها ، هذه الفطرة فطر الله الناس عليها ، إن الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس والمشرب

يراعى نسبته إليها ونسبتها إليه ، ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه فى تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه ، راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عندما يرمى أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام « كسورى ينتقد المصريين أومصرى ينتقد السوريين » هذا إلى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الإرزاء يصيبه سهم منه ، خصوصاً إن كان بيده هامات أمورها وفى قبضته زمام التصرف فيها ، فإن حظه « حينئذ » من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذى يلحق الأمة أكبر ، فيكون إهتمامه بشئون الأمة التى هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة .

« فعلى ولى الأمر فى مملكته ألا يكل شيئاً من عمله إلا لأحد رجلين : إما رجل يتصل به فى جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة فى نفوس المنتظمين فيها محترمة فى قلوبهم بحملهم توقيرها واحترامها على التغالى فى وقايتها من كل شين يدنو منها ، ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والأديان ، وإما رجل يجتمع معه فى دين قامت جامعته مقام الجنسية ، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الإسلامى الذى حل عند المسلمين – وإن اختلفت شعوبهم – محل كل رابطة نسبية ، فإن كلا من الجامعتين ، الجنسية على النحو السابق والدينية » مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

« أما الاجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك فى جنس ولا فى دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم فى المملكة كمثل الأجير فى بناء بيت لا يهمه إلا استيفاء أجرته ، ثم لا يبالى أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل ، هذا إذا صدقوا فى أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر ، واقفين فيها عند الرسم الظاهر ، فإن الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذى هو خادم فيها ولا يمسه شئ مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها ، إذا فقد العيش فيها فارقها وارتد إلى منبته الذى ينتسب إليه ، بل هو فى حال عمله وخدمته لغير

جنسه لاصق بمنبته فى جميع شئونه ما عدا الأجر الذى يأخذه - وهذا معلوم ببداهة العقل - فلا يجد فى طبيعته ولا فى خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلى شأنه ، بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أى وجه . هذه حالهم هى لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخر ، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فرارا من الفقر والفاقة وضربوا فى أرض غيرهم طلباً للعيش من أى طريق ، وسواء عليهم فى تحصيله صدقوا أو كذبوا ، وسواء وفوا أو قصروا ، وسواء راعوا الذمة أو خانوا ، أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طريق الولاية والسيادة على الأقطار التى يتولون الوظائف فيها - كما هو حال الأجانب فى الممالك الإسلامية لا يجدون فى أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ، ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة - ومن تتبع التواريخ التى تمثل لنا أحوال الأمم الماضية ، وتحكى لنا عن سنة اللّه فى خليقته وتصريفه لشئون عباده رأى أن الدول فى نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم ، وما كان شئ من أعمالها بيد أجنبى عنها ، وإن تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت فى هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبى فيها وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية فى أعمالها ، فإن ذلك كان فى كل دولة آية الخراب والدمار ، خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التى يتناولون أعمالها منافساء وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة .

« نعم كما يحصل الفساد فى بعض الأخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور فى حمية أبناء الدين أو الأمة ، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك إهتمام العظماء منهم بمصالح الملك إذا كان ولى الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها ، وفى هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل فى نظام الأمة ويضرب فيها الفساد ، ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب إلى التلاقى من الضرر الذى

يكون سببه إستلام الأجانب لهامات الأمور فى البلاد ، لأن صاحب اللحمة فى الأمة وإن مرضت أخلاقه واعتلت صفاته إلا أن ما اودعته الفطرة وثبت فى الجبلة لا يمكن محوه بالكلية ، فإذا أساء فى عمله مرة ازعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع إلى الإحسان مرة أخرى ، وإن ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات إليها ويميله إلى المتصلين معه بتلك العلائق وإن بعدوا .

ولهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم ، بل زادوا فى موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم فى بطون بيوتهم ، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم فى ممالكهم بعدما رأوا كثرة المطامع فيها لهذا الزمان ، وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة بعد ما علمتهم التجارب أنهم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذا عززوا أهانوا ، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون إليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخدعة .

« أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام اللّه التى لا تنقضى ؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسهم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم » .

* * *

الفصل الأول

من فقه عمر
فى اختيار الرجال

بصفة عامة : كان رضى اللّه عنه يتوخى توفر أمرين أساسيين : الخبرة ، والفضيلة .

وقد أسس ذلك على حديثين شريفين : أما ضرورة الخبرة فمشتقة من قوله صلى اللّه عليه وسلم لما سئل عن قيام الساعة فقال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » [١] .

أما عن الخلق فمأخوذ من قوله صلى اللّه عليه وسلم :« من استعمل رجلا من عصابة - جماعة - وفيهم من هو أرضى للّه منه . فقد خان اللّه ورسوله والمؤمنين » [٢] .

ولم يكن رضى اللّه عنه ممن تخفى عليه المعادن النفيسة .. كما لم يكن ممن يغره طلاء مزور .. فقد ترى الرجال كالنخل ، وما يدريك ما الدخل ، وإنما كان على ما قال المغيرة بن شعبة : كان عمر أفضل من أن يخدع [٣] ، وأعقل من أن يخدع [٤] .

وكان يعلم تماماً أن قوانين الإدارة قد تكون من الناحية النظرية ، وافية بحاجات الرعية . ولكن سوء التطبيق ، وغياب الحس الإيمانى ، من شأنه أن يحبط مفعول اللوائح والقوانين ، ومن ثم نراه يدقق فى إختيار العمال ، ضماناً

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الحاكم وصححه .

(٣) بفتح الياء .

(٤) بضم الياء .

لمصلحة الأمة ، وتبدو ملامح الدقة فيما كان يعلنه على الملأ خاصاً بطلب موظف جديد :

نموذج
للإعلان عن وظيفة

خلت وظيفة أحد الولاة فى عهد عمر رضى اللّه عنه فاشترط توفر ثلاثة أمور فيمن يتقدم لشغلها :

١ - أن يكون رجلا : إذا كان فى القوم - وليس أميرهم - بدا وكأنه أميرهم وإذا كان فيهم - وهو عليهم أمير - بدا وكأنه واحد منهم .

٢ - لا يميز نفسه على الناس فى ملبس ، ولا فى مطعم ، ولا فى مسكن .

٣ - يقيم فيهم الصلاة . ويقسم بينهم بالحق ، ويحكم فيهم بالعدل ، ولا يغلق بابه دون حوائجهم .

● معنى هذه الشروط :

عندما خلت الوظيفة كانت الخطوة الأولى : الإعلان عنها ، وعلى الملأ ولم يكن فى الحساب أن « يُفَصّل » الإعلان على فرد معين من أهل الثقة أو القرابة . تساق إليه سراً بغض النظر عن كفاءة الآخرين .

وتبرز الشروط الثلاثة صورة الموظف كما يجب أن تكون :

إنه شخصية قوية : إذا لم يكن أمير المجموعة ، فإنه يبدو وكأنه أميرهم ، فشخصيته المهيبة تضعه « فوق » ، وإن كان فى الواقع يعيش « بين » القوم ، فهو أميرهم غير المتوج بما يقدمه من خدمات ، وما يبذله من طاقة ، فى سبيل الجماعة فوق عمله الرسمى .

وإذا كان أمير القوم بالفعل بدا للعين المجردة كأنه واحد منهم : فهو يضيف إلى الهيبة تواضعاً يحميه من نزعة التسلط ، وبهذا التواضع يظل وثيق الصلة بمرؤسيه ، وبذلك يتحقق التماسك ، ليعمل الجميع بروح الفريق المتكامل ، فلا يتعثر مشروع ، ولا تتعطل مصلحة ، وأنت خبير بأن انقطاع الصلة بين الرئيس والمرءوس قاض على كل بادرة إصلاح بالفشل ، مضيع لطاقة الأمة فى خلافات لا تنتهى .

ومن الناحية العملية يبدو كواحد منهم فى ملبسه ومطعمه ومسكنه ، وإلا فإن الامتياز يفتح على القلوب باباً إلى الحسد والتباغض لا تتم به الاخوة الجامعة .

ولا تكتمل قيادته إلا إذا عاش فى ضمير الجماعة : يقيم الصلاة ، ويحكم بالعدل ، ويقضى بالحق ، ويفتح بابه أمام الجميع ليظل موصول القلب بآمال أمته وآلامها ، وبهذه الخصائص ، يملك قلوباً تحبه ، فإذا أحبته أطاعته ، وأطاعت معه أوامره ، وانتظم بذلك دولاب العمل .

● مغزى هذه الشروط :

فضلا عن أن الحاكم هنا يختار أفضل النماذج القادرة على النتاج ، فإنه يريح نفسه من متاعب لا قبل له بها ، إذا هو فرط فى أمر الوظيفة فساقها إلى من لا ترشحه مواهبه لها .

كتب « طاووس التابعى » إلى عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة : « إذا أردت أن يكون عملك خيرا كله ، فاستعمل أهل الخير » . فقال عمر حين استلم الرسالة : كفى بها موعظة .

أجل ، كفى بها موعظة ، على قلة مبناها ، وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها ، فلك أن تتصور ما يمكن أن يجره سوء اختيار الموظف من وبال ، وما يجلبه التوفيق من بركة .

(قال الطرطوشى يحذر السلطان أن يولى الوزارة لئيماً : إن اللئيم إذا ارتفع ـ

أى تولى – جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوى الفضل والإنصاف) [١] .

وإنها لثروة ضخمة من الرجال يبددها المسئول حين يولى الأمر من ليس له أهل ، وأين هذا مما روى أن الرشيد قال لأعرابى : بم بلغ منكم هشام هذه المنزلة ؟ قال الأعرابى : « لحلمه عن سفيهنا ، وحمله عن ضعيفنا ، وعفوه عن مسيئنا ، لا منان إذا وهب ، ولا حقود إذا غضب ، صلب الجنان ، عذب اللسان ، سمح البنان » .

إنه كالأب لليتيم ، وكالزوج للأرملة ، وإلى جانب عواطفه تلك الجياشة فهو عادل : لا يحابى القريب ، فى نظرة ، ولا جلسة ، حتى يظل لواء الحق مرفوعاً فلا يطمع شريف فى حيفه ، ولا ييأس ضعيف من عدله ، إلى بطانة خيره تعينه على الحق ، فلا يجالس السفيه ، ولا يخالط ذا الوجهين كما جاء فى وصية لقمان لابنه .

وهذا النموذج المختار لقيادة الموقع هو الترجمة الحية لشروط عمر رضى اللّه عنه ، إنه موظف حاضر أبدا فى وجدان مجموعته ، لا يغيب . وقاعدته الجماهيرية التى يرتكز عليها معجبة به ، مشدودة إليه ، وبهذا التجاوب يزيد النتاج ، بل ويتفوق .

(إن طبيعة النظرة الإسلامية فى هذا الصدد ، تنهض على أن القيادة إذا فقدت قاعدتها تصبح ورقة ذابلة معلقة فى فراغ ، وإذا فقدت القاعدة قيادتها ، تصبح قوة هائلة تصب فى محيط الضياع ، لا بد من إحساس جمعى يربط القائد بجماهيره ، والجماهير بقائدها ، وهذا ما أعطى على صعيده محمد ﷺ أروع نماذج العطاء ، لقد قاتل إلى جوار أصحابه ، وحفر معهم تحصيناتهم الدفاعية . ولقد عاد مرضاهم ، وواسى حزاناهم ، وفرح لغبطة الهانئين ، وكانوا هم كذلك

---

(١) سراج الملوك .

له ما كان لهم ، افتدوه بالروح والمال والولد ، واستقبلوا الموت بعد موته كأنما يستقبلون أحلى المواعيد : غدا ألقى الأحبة .. محمداً وصحبه) [١] .

وفى نصيحة طاووس الآنفة يلاحظ أنه لم يحمّل ميزانية بيته ثمن تهنئة مغرضة يلتمس بها رضاء الخليفة ، كما يفعل اليوم حين يعين وزير أو مدبر ، وإنما اختار أن تكون تهنئته ، نصيحة غالية تساعد المسئول على أمر الله .

● صورة من الواقع :

فى حوار ساخن بين رئيس الموقع ووكيله ، قال الوكيل : ارشح « فلانا » لشغل الوظيفة الشاغرة ، فهو ممن يلازمون المسجد ، وقد تعلق قلبه به . وقال رئيسه : لا شأن للصلاة بالوظائف العامة ، إنما هى صلة بين العبد وربه ، ولا يصلح للوظيفة إلا فلان ، فهو ذكى وإدارى .

ويذكرنا هذا الحوار بشكوى عمر رضى الله عنه : اللهم إنى أشكو إليك عجز الثقة وقدرة الفاجر .

فالرجل الثقة الأمين ، عاجز عن إدارة دولاب العمل بنجاح ، بينما القادر على تصريف الأمور فاجر غير مؤتمن ، إن النسب إذن مختلة ، ولو كان هناك قدر من الإنسجام بين الأمانة والقدرة لوجد القيادى المطلوب ، وهذا ما أشار إليه رضى الله عنه فى قوله : (إن هذا الأمر لا يصلح له إلا اللين فى غير ضعف ، الشديد فى غير عنف) ، وكان رضى الله عنه يحذر من اختلال هذه النسبة وهو يختار رجاله ، فقد يكون هناك المخلص الوفى ، لكنه متسرع ، من أجل ذلك كان يتخطاه فلا يوليه ، خاصة فى الحرب التى لا يصلح لها إلا الرجل المكيث .

وأحيانا كان يضنّ بالموقع القيادى على رجل نظيف اليد واللسان قادر على إدارة الموقع ، بيد أنه كان ينأى به عن مضاعفات المنصب التى قد يصيبه برذاذه ، ثم تغطى الشائعات المغرضة فضائله التى تحتاج إليها الأمة فى مواقع أخرى .

---

(١) د . محمد العزب ، الوعى الإسلامى ، ذو القعدة ١٤٠٥ .

مسئولية الاختيار بين أهل الثقة وأهل الخبرة

كان أبو ذر رضى اللّه عنه محل تقدير الرسول ﷺ ، فى قوله : « ما أظلت السماء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر » ولكنه صلى اللّه عليه وسلم فيما يتعلق بتعيينه فى موقع قيادى نصحه قائلا : « يا أبا ذر : إنى أراك ضعيفاً ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى : لا تأمرن [1] على اثنين ، ولا تولين على مال يتيم » رواه مسلم .

وقد وضع رسول اللّه ﷺ قاعدة التفريق بين أهل الثقة ممن تربطك بهم مودة ، وبين أهل الخبرة ممن لا تربطك بهم صلة ، لكنهم قادرون على قيادة العمل بنجاح ، وتفرض المصلحة أن يولى الخبير بالموقع ، العليم بما يصلحه ، وإلا فلو كانت حركة التعيينات والترقيات خاضعة للصداقة لكان أبو ذر فى طليعة الأمراء ، لكنه صلى اللّه عليه وسلم لم يفعل ، مشيراً إلى ضرورة توفر شروط القيادة فيمن يتحمل مسئولية موقع ما .

وحين يشغل الوظيفة رجل رشحته مواهبه لها ، فإنه يمارسها من موطن العزة ، وسوف يملك القدرة - إذا رأى إنحرافا - أن يقول : لا .. حيث لا منّة فى إختياره لأحد ، لأن مواهبه الذاتية هى التى أهلته ورشحته .

أما القريب أوالنسيب العاجز فقد يتستر على صور الإنحراف إبقاء على نفسه أولاً ، وعلى رئيسه الذى هو ولى نعمته فى نفس الوقت .

قلت للفلاح البسيط فى قريتى : فلان ساكت لا ينطق بالحق ، بينما زميله فى المسئولية عالى الصوت ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وقال صديقى الفلاح : الأول « بالع » تقف لقمة الحرام فى حلقه ، ومن ثم فلا يستطيع الكلام !! إنه

---

(١) يقال أمر على القوم من اب فتل فهو أميرهم .

يخشى من حوله ، فآثر السكوت ، ولكن زميله النظيف ، لا يخشى أحداً ، ومن هنا ينطق بالحق تحت أى ظرف من الظروف .

ونجد أنفسنا حيال موظفين فى موقع المسئولية : أما أحدهما فلا يستطيع إتخاذ قرار لا يملك القوة الحاملة عليه ، قد يأخذ فى إعتباره الحفاظ على أصوات الناخبين فى دائرته ، وقد يجامل أصهاره وأنصاره مجاملة تشل إرادته فلا تنفذ أمراً ولو كان حقاً ، وتمسك يده فلا توقع قرارا ولو كان عدلا ، وتجمد قدمه فلا تسعى فى الإتجاه الصحيح .

أما الآخر فما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ومن ثم : فليست لديه صلاحية الإنقياد لأحد بعد أن ارتفعت به نزاهته فوق كل أحد ، وفوق كل منصب ، فلا يغريه ثناء ، ولا يستعبده منصب !

● بيت القصيد

وهذه النزاهة المانعة من كتمان الحق ، الدافعة إلى العمل به ، هى بيت القصيد فى شخصية الموظف :

دعى العلامة محمد بن بشير إلى قضاء قرطبة ، فاستشار صديقا له ، فقال الصديق : كيف حبك لمدح الناس لك ، وثنائهم عليك ؟ وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل ؟ قال : واللّه ما أبالى من مدحنى أو ذمنى ، وما أسرّ للولاية ولا أستوحش للعزل ! فقال له صديقه : إقبل الولاية ، ولا بأس عليك .

● حتى يستقيم دولاب العمل :

كانت هناك إجراءات صارمة من أجل الوصول إلى موظف يتمتع بهذه الشروط الآنفة ، وتتمثل فى :

أ - وضع مقياس دقيق يعين على حسن الاختيار .

ب - التحذير من فقدان شروط القيادة أو أحدها .

جـ - تكليف من توفرت فيه عناصر القيادة .

د - القدوة الحسنة المتمثلة فى حاكم الدولة ومن يختارهم .

● الدقة فى الاختيار :

قال رجل لعمر : إن فلانا رجل صدق ، فقال له : هل سافرت معه ؟ قال : لا قال عمر : فهل حدثت بينك وبينه خصومة ؟ قال : لا . قال : فهل ائتمنته على شئ ؟ قال : لا . قال عمر : فأنت لا علم لك به . أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه فى المسجد ؟!

● مقابلة شخصية :

والأصل فى ذلك ما روى من أنه صلى اللّه عليه وسلم : عندما أراد أن يولى معاذ بن جبل على اليمن سأله ، بم تحكم ؟ فأجاب : بكتاب اللّه . ثم سأله : فإن لم تجد ؟ فرد معاذ : بسنة رسول اللّه . ثم سأله : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد برأيى ، ولا آلو - لا أقصر - فأجازه صلى اللّه عليه وسلم .

إن الفكرة العابرة عن شخص لا تصلح أساسا للحكم له أو عليه . ولكى نستبين أخلاق الرجال فلابد من النفاذ إلى الأعماق ، ولا نكتفى بالتجديف على السطح البادى . لا بد من مخالطته ومعايشته فى أدق خصائصه ، وفى تقلبه اليومى ، فى السفر الذى يظهر المخبوء من الطباع ، وفى الخصومة التى يلتهب فيها الجدل ، ويشتد فيها الإحساس بحظوظ النفس .

ثم فى باب الأمانة ومدى الحفاظ عليها ، فإذا نجح المرء وتخطى هذه العقبات فقد أثبت صلاحه ونجاحه ، ومن ثم فهو أهل للاختيار .

وإذا كنا نحب الرجل يصلى ويصوم ، فهو أحب إلينا حين يترجم هذه العبادة إلى عمل ، إلى فضائل إجتماعية .

وقد كان عمر رضى اللّه عنه منطقياً مع نفسه : فلم يكن يمنح حبه وتقديره للناس هكذا بلا حساب ، وبلا دراسة تستبطن الأمور ، وإنما بقدر ، وعلى أساس ما يظهر له من بيانات عن المحكوم له أو عليه .

قال يوما : (أحبكم إلينا ما لم نركم : أحسنكم إسما ، فإذا رأيناكم ، فأحبكم إلينا : أحسنكم أخلاقاً ، فإذا اختبرناكم ، فأحبكم إلينا : أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة) .

إن قلبه الكبير يسع الناس جميعاً لكن حبه العظيم لا يستأهله إلا العظماء ! فلا يمكن أن يهب قلبه لرجل حسن إسمه ، فقط وإنما بالإضافة إلى حسن خلقه - ينبغى أن يكون ، أصدق الناس حديثاً ، وأعظمهم أمانة .

وذلك قوله فى موقف آخر وهو يوصى الناس أن يأخذوا أنفسهم بمثل ما أخذ به نفسه : (لا تنظروا إلى صيام أحد ، ولا إلى صلاته ، ولكن انظروا من إذا حدث صدق وإذا ائتمن أدى ، وإذا أشفى (أشرف على معصية) ورع (أى تراجع وإنتهى) .

والمعرفة المتعجلة السريعة تورط أناساً فى مواقع تفسد رئاستهم :

يروى أن سليمان بن عبد الملك أراد أن يستعمل « يزيد بن مسلم » كاتباً ، فاعترض عمر ابن عبد العزيز حتى لا يثير ذكريات مؤلمة للحجاج بن يوسف وقال سليمان وهو يزكى « يزيد » : إن يزيد أمين لم يسرق درهماً ولا ديناراً فابتسم عمر وقال : هل أدلك على أفضل منه ؟ ! إبليس !! لم يسرق درهماً واحداً ، لكنه أفسد كثيراً من الناس !!

ويلفت عمر نظر سليمان إلى أن كف اليد عن الحرام وحده لا يكفى ، ولابد من قدرة على تصريف شئون الوظيفة ، ولا بد أيضاً من ثبات يواجه به المسئول مضاعفات هذه الوظيفة .

أما مجرد الأمانة فى ناحيتها السلبية ، فلا تصلح وحدها مسوغاً للإختيار .

وما أكثر الجالسين على كراسيهم لا يمدون أيديهم لمال ، وليس ذلك عن زهد وعفة ، وإنما لأن لهم أتباعاً يتكفلون بالسرقة نيابة عنهم !! وربما طالت يد القانون صغار السراق حين يضبطون وهم يسرقون ، بينما يبرأ المجرم الحقيقى من عقاب هو أحق به ، ومن المفارقات العجيبة ما روى :

مرّ « عمر بن عبيد » بجماعة وقوف ، فقال : ما هذا الجمع ؟ قيل : السلطان يقطع سارقاً . فقال : لا إله إلا اللّه ، سارق العلانية يقطع سارق السر ؟! وما أكثر المسئولين الذين يتخطونك فى الترقية زاعمين أنهم يمارسون حقهم ، بينما يسرقون بهذا التجاوز سنة من عمرك ، إلى جانب حقوقك المالية المضيعة . ولا بأس أن يتحدثوا عن نزاهتهم ، بينما أيديهم مخضبة بدماء الضحايا !

وإلى جانب هؤلاء المسئولين عمال وموظفون ، يبدون فى سمت العاملين المخلصين بينما هم لا يؤدون عملهم كما ينبغى ، ثم يتسللون من مكاتبهم لواذا ، فى الأوقات الرسمية .

نشرت الأهرام هذا التعليق : « لا ... للمساواة الظالمة !

يجمع كل خبرائنا على أن الحل الأمثل لمشكلاتنا يتحقق بزيادة الإنتاج ، رغم ذلك تعلن النيابة الإدارية فى أحد تقاريرها أنها أحالت إلى المحاكمة التأديبية خلال عام واحد عشرات الموظفين لعدم قيامهم بأعمالهم أو لعدم أدائهم أعمالهم بدقة ! .. رغم ذلك تعلن الاحصائيات العلمية الدولية أن المتوسط اليومى لساعات العمل فى مصر لا يزيد على ساعة واحدة أو ساعتين !

هذه الظاهرة المحزنة والمخجلة معا تثير بعض تساؤلات ...

* هؤلاء الذين لا يعملون ، كيف يسمحون لأنفسهم بأن يتقاضوا أجر عمل لم يقوموا به وثمن عرق لم تنحدر حباته على جباههم ؟

ألا يعنى ذلك أن ضمائرهم قد ماتت ومات بموتها ما يمكن أن يؤنبهم أو يردعهم ؟ !

* وهذه الأجور التى يتقاضاها من لا يستحقها اليست هى عائد عمل العاملين المنتجين ؟! .. أو ليس فى ذلك ظلم يوقعه أصحاب الضمائر المكفنة بأصحاب الضمائر الحية من العارفين ؟!

* وكيف يسمح مسئولونا أو كيف تسمح نظمنا الإدارية بأن يتساوى من

فليحذر الحكام :

١ - ليوفروا لشعوبهم التقدم .

٢ - ولأنفسهم الثقة والحب .

إن المحسوبية : منفعة مؤقتة .. أمنا العدل والعلم ، فهو المنفعة الدائمة .

من أجل ذلك يحذر عمر رضى اللّه عنه من استعمال رجل لمجرد المودة .

يقول : (من استعمل رجلا لمودة أو قرابة ، لا يحمله على إستعماله إلا ذلك ، فقد خان اللّه ورسوله والمؤمنين ، ومن استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر ، فهو مثله) ، نعم هو مثله لأن الطيور على أشكالها تقع ، واختيار المرء قطعة من عقله .

● معنى وضع الرجل فى غير موضعه :

إن عمر رضى اللّه عنه - تأسياً برسول اللّه ﷺ - يحذر من الترخص فى الأمر ، ويشدد النكير على تحكيم المزاج الشخصى . ثم تجاهل مصلحة الدين والوطن معاً .

لأن معنى وضع الرجل فى غير موضعه ، أو إيثار الطالح على الصالح :

أ - فساد العمل فى غيبة الخبرة .

ب - تحكيم الهوى المتقلب .

جـ - إثارة السخط على النظام .

د - ضياع الثقة بين أفراد الأمة بضياع أهلها .

لكن الرسول ﷺ - ومن تبعه بإحسان - يريد الابقاء على هذه الثقة الرابطة ، وبخاصة الثقة بحاكم ساهر على مصلحة الأمة . أو موظف أمين على أموالها أن تضيع . وعلى طاقاتها أن تهدر .

وفى ظل هذا الاختيار الموفق تستقر دعائم الحكم ، ويتوارى المستغلون ، الذين يريدون الإثراء على حساب الشعب .

أراد عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس إقتطاع قطعة أرض لإصلاحها ، والإستيلاء عليها . فأشار البعض على أبى بكر رضى الله عنه أن يقطعهما الأرض ، فأرجأ الموافقة إلى أن يوافق عمر رضى الله عنه . فلما ذهبا إليه قال : إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام ضعيف ، وإن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا فاجهدا جهدكما . وقد حاول الرجلان إستغلال هذا الموقف للوقيعة بين أبى بكر وعمر ، حين قالا لأبى بكر : والله ما ندرى .. أنت الخليفة أم عمر ؟! ورد أبو بكر قولهما .. بقوله : لا بل هو .. لو كان شاء !! وبقيت الأرض المراد اغتصابها للدولة ، وبقيت كذلك آصرة الأخوة أقوى ما تكون . وبقيت صورة عمر رضى الله عنه فى وعى المسلمين كما أشرنا آنفاً : (كان أفضل من يَخدع [1] .. وأعقل من أن يُخدع [2]) .

لم تكن الوظيفة فرصة لتكثير سواد الأصحاب والمحاسيب ، والمنتفعين ، بل إنها عبء ثقيل يخسر به المخلصون كثيراً من أصدقائهم ، أو المعجبين بهم ، إلى جانب كونها مزلقاً خطيراً لذنوب يمكن - مع شدة تحرى الحق - أن تحبط المسعى .. إلا أن تدارك العامل رحمة من ربه .

● من هدى رسول الله ﷺ :

عن حذيفة بن اليمان (صاحب النبى ﷺ ومن قادة الفتوح) رضى الله عنه قال : ما أنا مثنيا على وال خيرا ، جائرهم وعادلهم . فقيل له : لم ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالولاة يوم القيامة ، جائرهم وعادلهم ، فيوقفون على الصراط ، فيوحى الله تعالى إلى الصراط المستقيم فيرجف بهم رجفة لا يبقى منهم جائر فى حكمه ، ولا مرتش فى قضائه ، ولا مُمَكِّنٍ سمعه لأحد الخصمين ما لم يُمَكِّن للآخر ، إلا زلت قدماه سبعين عاما فيجهنم » .

---

(١) بفتح الياء .　　(٢) بضم الياء .

وعن أبى أمامة (الباهلى ، وهو ابن عجلان بن وهب ، صحابى) رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من رجل يلى أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله يوم القيامة ، يده إلى عنقه ، فكه بره أو أوثقه إثمه ، أولها ملامة ، وأوسطها ندامة ، وآخرها خزى يوم القيامة) [1] .

● خطة العمل :

عندما يقع الاختيار على رجل ، يستدعيه عمر رضى الله عنه فى مقابلة خاصة ، يحدد له فيها طبيعة العمل ، ومنهاجه ، وحدود سلطاته ، إلى جانب التحذير من الإنسياق وراء مظاهر الترف الذى ينأى بصاحبه بعيداً .. ليصير معزولا عن رعيته فلا يرى أحوالهم ، ولا يسمع أناتهم ، وعندئذ تنتهى مهمته ، كما كان يحذر العمال من الغرور المردى ، ذلك الداء الذى يغرى المسؤل بالتكبر ثم بالتجبر المفضى فى النهاية إلى إمتهان كرامة الإنسان .

ومن وصاياه لعماله الجدد : (إنى لم استعملكم على أمة محمد على إشعارهم ، ولا على ابشارهم ، وإنما استعملتكم عليهم ، لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل) .

فإذا كان العامل أميراً للجيش ، كانت وصاته بالتقوى فى مقدمة الوصايا ، ليحمى بالتقوى نفسه وجيشه من الغرور ، وحتى لا تذهب نزوات النفوس فى ساحة المعركة مذهبا لا يرضاه الحق .

وكان من جملة هذه الوصايا لأمراء الجند : ألا يعتدوا ، ولا يجبنوا عند اللقاء ، ولا يمثلوا ، ولا يقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا وليداً ، وألا يغلوا عن الغنائم ، منزهين الجهاد عن عرض الحياة الدنيا .

وكان يكتب على العامل كتاباً ، ويشهد عليه رهطاً من الأنصار إلا يركب

---

(١) بدائع السلك فى طبائع الملك .

برذوناً (١) ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول : اللهم اشهدوا (٢) .

• تسجيل الذمة المالية :

ومن دقته رضى الله عنه أنه إذا استقر رأيه على تولية أحد ، أن يتعرف على وضعه المالى ، حتى إذا مضى فى تدبير شئون ولايته ، كان تحت الرقابة الدقيقة التى سوف تحاسبه يوماً لترى هل أثرى على حساب الشعب ؟

وكان لهذه الرقابة أثرها : فإحساس الموظف بأن العيون ترصده ، مانع له من الإنحراف ، ومن صور الخلل فى حياتنا اليوم ، غياب هذه المتابعة ، إلى أن يجمع المسئول ثروة طائلة ، بينما الرقابة نائمة ، وقد تمكنه تلك الثروة من الإفلات من قبضة القانون على أية صورة ، هذا القانون الذى لم يصح من غفوته إلا بعد فوات الأوان .

• إعانة الوالى على نفسه :

وكان من تدبيره رضى الله عنه فى توقى الإنحراف ، أن يحمى العامل من آفات نفسه أولا ، وفى مقدمة هذه الآفات :

١ - الغرور .

٢ - والكبر .

كما أسلفنا ، ومن التطبيقات العملية ما يلى :

١ - فيما يتعلق بالغرور ، فنراه يوصى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وهو يتأهب للمسير إلى القادسية ، (يا سعد : لا يغرنك من الله إن قيل : خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السئ بالسئ ،

---

(١) البرذون : التركى من الخيل .

(٢) راجع محاضرات فى الإدارة الإسلامية ، لمحمد كرد على ص ٣٠

ولكنه بمحو السيئة بالحسنة ، يا سعد : إن اللّه ليس بينه وبين أحد نسب ، إلا الطاعة ، فالناس جميعاً شريفهم ووضيعهم فى ذات اللّه - عند اللّه - سواء ، اللّه ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالتقوى ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ عليه فالزمه ، فإنه الأمر) ومعنى ذلك : إستبعاد لحمة النسب ، لتبقى الطاعة هى المقياس .

● مع عدى بن حاتم :

روى البخارى عن عدى بن حاتم الطائى رضى اللّه عنه :(وفدت فى وفد على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ، فجعل يدعو رجلا رجلا ، ويسميهم ، فقلت : أما تعرفنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى : أسلمت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا . فقال عدى : فلا أبالى إذا) .

لقد ظن عدى فى تجاهل عمر لاسمه أو جهله به إنتقاصاً من قدره ، ولكن عمر يكشف عن حقيقة دور عدى المشكور حين دخل الإسلام مذعنا ، مقبلا ، وفيا ، وهذه فضائل أربى من نسبته إلى أبيه وإن ذاع صيته وعلا ذكره ، وقد اعتز عدى بهذا النسب الكريم النبيل ، وفهم الدرس المستفاد ، والذى انتقل به إلى أفق أعلى من كل ما يتمناه الطامحون .

٢ - وكانت وصاته بتجنب الكبر عالية النبرة شديدة اللهجة ، ونأخذ مثالا على ذلك ما وصى به رضى اللّه عنه عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة : (يا عتبة : اتق اللّه فيما وليت ، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك إخوتك ، وقد صحبت رسول اللّه ﷺ ، فعززت به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مسلطاً ، وملكا مطاعاً ، تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك ، فيالها نعمة - إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتبطرك على من دونك - ! إحتفظ من النعمة إحتفاظك من المعصية . ولهى أخوفهما عندى

عليك أن تستدرجك ، وتخدعك ، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك باللّه ونفسى من ذلك) [1] .

إن رذيلة الغرور تعنى : الترفع على عباد اللّه ، بنسب أو قوة ، أو قرابة لمسئول كبير ، وقد تزين لصاحبها انه فوق النقد والمساءلة ، وهو باب يهب منه شر مستطير ، ومن ثم ، يغلق عمر هذا الباب وقاية للحاكم والمحكوم معاً .

كما إن الكبر داع إلى التفريط فى حقوق الآخرين ، وما يترتب على ذلك من قطع صلة المتكبر بالناس ، فإذا كان المتكبر حاكماً ، فقد ضاع ، وأضاع مجتمعه .

● حفل وداع :

ومن حكمته رضى اللّه عنه أن يخرج مع الموظف بنفسه ، إلى مشارف المدينة فيما يشبه حفل الوداع الرسمى ، على ملأ من الناس ، تقديراً ، وإعلاناً ، وإشهاداً ، له أثره فى عقد العزم على أن يظل الموظف أهلاً لهذا التكريم ، وتلك الثقة .

● أهمية الاختصاص وحقوق الموظف :

ومما يعين على نجاح العمل أن يوضع الرجل فى موضعه المناسب ، على ألا يتحمل فوق ما يطيق أيضاً .

أخرج البخارى (أن اللّه خلق كل صانع وصنعته) .

وأخرج أيضاً (يا أيها الناس : خذوا من الأعمال ما تطيقون ، إلى أن يقول : وإن أحب الأعمال إلى اللّه أدومها وإن قل) .

إن توجيه العامل إلى الوظيفة التى يجيدها أولا : إحترام لمواهبه ، إنطلاقاً من تقدير الإسلام لاستعدادات البشر المختلفة . ثم هو من ناحية أخرى ضمان لوفرة النتاج وجودته ، حين يقف العامل فى موقعه المناسب .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٩٣

إن وضع الرجل فى غير موضعه سوف يرتد عليه يأسا يفقده القدرة على ممارسة عمل ما .

والتكليف بما فوق الطاقة مرهق للنفس إرهاقا ينعكس على النتاج قلة ورداءة .

ويروى فى ذلك عنه صلى اللّه عليه وسلم : (أتى بتمر بعل ، وتمر قد سقى ، فجعل يأكل من البعل ، فقيل له يا رسول اللّه : إن هذا أصفى وأطيب ، فقال : هذا لم تجع فيه كبد ، ولم يَعر فيه جسد) وهذا تقدير منه صلى اللّه عليه وسلم لطاقة الإنسان التى يجب أن تؤخذ فى الإعتبار ونحن نحدد ساعات العمل ونوعيته ، إشفاقاً على العامل ، وهذا الإشفاق الذى حمله صلى اللّه عليه وسلم على أكل التمر الذى لم يتعب فيه إنسان ، جاء تأسيساً على هذه القاعدة : (ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم) .

● من حقوق العاملين :

من كلان الإمام على : (أسبغ على عمالك الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، ومانع من تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك ، أو خانوا أمانتك) .

إن وفرة الأجور لا تكون فقط رفاهية للعامل وأهله ، بل إن لها آثاراً خلقية حميدة لا تشترى بمال : إنها تصلح النفوس فتقبل على عمل تحبه ، بقدر ما تكف الأيدى عن مال الغير . ثم إنها حجة فى وجه المرتشين والسراق . على أن يكون الأجر محدداً سلفاً ، ومدفوعاً فور إتمام العمل .

وقد روى الشيخان :

(من استأجر أجيراً فليعلمه أجره) .

(ومن استأجر أجيراً فليعطه أجره قبل أن يجف عرقه) .

ومن المؤسف أن بعض القادرين اليوم يسوفون فى إعطاء العامل حقه ، ولا يمكنونه منه إلا بعد أن يجف حلقه !

وقد وصل الإسلام فى تقديره للعامل وتوفير المستوى اللائق به حداً لم تصل إليه أغنى الدول الآن .

وفى الأثر :

(من كان لنا عاملا فليكتسب زوجه ، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادما)

كتب أحد عمال عمر بن عبد العزيز يسأله عن الرجل يكون له المسكن والخادم والفرس ، ويكون من الغارمين الذين تقوم الدولة بوفاء ديونهم ، فأجابه : (لابد للرجل من المسلمين : من مسكن يأوى إليه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ، فإن لم يكن فهو غارم ، فاقضوا عنه دينه) .

أى أن توفر الخادم والفرس والسكن هو الحد الأدنى للمعيشة وليس هو مطالباً ببيعها وفاء لدينه .

● حساسية مفرطة :

واستشعار ذلك الهول من تبعات الوظيفة هو الذى نغص على عمر بن عبد العزيز حياته ، وذلك قوله : « مالى لا أغتم » ؟

والقصة أنه لما رجع من جنازة سليمان ، وقد بايعه الناس ، واستقرت الخلافة باسمه ، إنقلب وهو مغتم مهموم ، فقال له مولاه : مالك هكذا مغتماً مهموماً وليس هذا بوقت هذا ؟

فقال : ويحك ، ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه إليه ، كتب إلى فى ذلك أو لم يكتب ، طلبه منى أو لم يطلب .

قالوا : ثم إنه خير امرأته فاطمة بنت عبد الملك بين أن تقيم معه على أن لا فراغ له إليها ، وبين أن تلحق بأهلها ، فبكت وبكى جواريها لبكائها ، فسمعت ضجة فى داره ، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله ، وقد قال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين ، فأنشأ يقول :

قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طرق السلامة

ذهب الفراغ فلا فرا غ لنا إلى يوم القيامة [١]

ولقد كان عمر رضى اللّه عنه صادق الإحساس بثقل المهمة التى يمكن أن تورطه فى ظلم لم يقصد إليه فتذهب بركة العمر كله ؟

وتاريخ الحياة حافل بشواهد ذلك .. ومنها : الظلم يذهب البركة :

روى عن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما أن ملكا خرج يسير فى مملكته مستخفياً بمكانه ، فنزل على رجل له بقرة ، فراحت البقرة فحلبت قد قتلين ، فعجب الملك لذلك وحدث نفسه بأخذها ، فلما راحت من الغد حلبت على النصف ، فقال الملك : ما بال حلابها قد نقص ، أرعت فى غير مرعاها بالأمس ؟ قال : لا ، ولكن أظن أن ملكنا هم بأخذها فنقص لبنها ، فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة ، فعاهد اللّه فى نفسه ، فراحت من الغد ، فحلبت حلاب قلتين ، فتاب الملك ، وعاهد ربه : لأعدلن ما بقيت .

قال الطرطوشى : وهكذا تتعدى سائر أعمال الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية ، إن خيرا فخير وإن شراً فشر [٢] .

● أمر تكليف :

وقد بلغ الحرص على سلامة المقصد وصحة العمل منتهاه أن أصدر الخليفة - عمر بن الخطاب - أمره يوماً بتكليف رجل ليقوم بوظيفة لم تكن تصلح إلا به .

فلم يكن عمر رضى اللّه عنه ينتظر حتى يقدم طالب الوظيفة ، فربما أحجم الناس عن طلبها طواعية واختياراً ، من حيث كان الإحساس بالمسئولية قويا ومانعاً - لهذا السبب - من التقدم لشغلها من قبل الكفاءات الممتازة ، ومن هنا يفرض الخليفة الوظيفة .

---

(١) البداية والنهاية .

(٢) بدائع السلك نقلا عن : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة .

استدعى رضى اللّٰه عنه « سعيد بن عامر » وعرض عليه الولاية فلما قال له سعيد : لا تفتنى يا أمير المؤمنين ، صاح به أمير المؤمنين ثائرا : واللّٰه لاأدعك . أتضعون أمانتكم وخلافتكم فى عنقى ، ثم تتركوننى ؟! وأصدر أمر تكليفه ليكون « محافظاً » لحمص ، بالشام .

وقد تجلت حكمة الخليفة فيما تجلى من أخلاق « المحافظ » الجديد ، وذلك عندما اشتكى الناس منه إلى الخليفة فجاء دفاعه آية بينة على فضل الرجل ، وقبل ذلك على فضل الخليفة الذى وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .

● المحافظ فى قفص الإتهام :

شكا بعض أهالى حمص واليها « سعيد بن عامر » إلى عمر رضى اللّٰه عنه فقالوا :

١ - لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

٢ - لا يجيب أحدا بليل .

٣ - له فى الشهر يومان لا يخرج فيهما الينا ولا نراه .

٤ - تأخذه الغشية - الاغماء- بين الحين والحين .

● المحافظ يرد على الاستجواب :

ودافع المحافظ عن نفسه فقال :

(أما قولهم أنى لا أخرج إليهم حتى يتعالى النهار ، فواللّٰه لقد كنت أكره ذكر السبب ، إنه ليس لأهلى خادم ، فأنا أعجن عجينى ثم أدعه حتى يخمر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ للضحى ، ثم أخرج إليهم .

وأما قولهم : لا أجيب أحداً بليل ، فواللّٰه لقد كنت أكره ذكر السبب ، إنى جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لربى .

أما قولهم : إن لى يومين فى الشهر لا أخرج فيهما ، فليس لى خادم يغسل ثوبى وليس لى ثياب أبدلها ، فأنا أغسل ثوبى ثم أنتظر حتى يجف بعد حين ، وفى آخر النهار أخرج إليهم .

وأما قولهم : إن الغشية تأخذنى بين الحين والحين ، فقد شهدت مصرع خبيب الأنصارى بمكة ، وقد بضعت قريش لحمه ، وحملوه على جذعه ، وهم يقولون له : أتحب أن محمداً مكانك وأنت سليم معافى ؟ فيجيبهم قائلا والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى معى عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله ﷺ بشوكة ، فيصيح أبو سفيان وهو يضرب بكفيه على فخذيه من الغيظ والتعجب « والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد لمحمد » . فكلما ذكرت ذلك المشهد الذى رأيته وأنا يومئذ من المشركين ، ثم تذكرت تركى نصرة خبيب يومها أرتجف خوفاً من عذاب الله ، ويغشانى الذى يغشانى) .

• التأهيل المهنى :

وعلى ذكر تكليف القادر على تحمل المسئولية ، لا ينسى التاريخ ما فعله عمر رضى الله عنه عندما رأى جماعة ممن أصيبوا فى الحرب وأقعدتهم الإصابة عن العمل ، وكيف بعثهم بهمته بعثاً جديداً .

يقول باحث : (والتأهيل المهنى أول من طبقه فى العالم كله الخليفة العادل عمر بن الخطاب حيث سجل التاريخ أنه مر بجماعة بجوار المسجد النبوى فى موسم الحج ، وسألهم عن عملهم فقالوا : نحن جنود أعجزتنا جراح الحرب عن كسب عيشنا فأمر بتعليمهم بعض المهن المعروفة فى ذلك الوقت ، التى تتناسب مع أعضاء أجسامهم السليمة ، وهى المهن المتعلقة بصناعة الخوص المأخوذ من النخل شجرة العرب العريقة .

وفى العام التالى ، سأل الخليفة عمر عن هؤلاء الجنود فجاءوا إليه ، وسألهم عن حالهم ، فقالوا له : نحن نخرج الزكاة على أموالنا التى كسبناها من عملنا ،

وهكذا كانت الأراضى الحجازية المقدسة أول بلاد عرفت التأهيل المهنى قبل أن تعرفه الدول [1] .

- مسئولية الحاكم :

ولكن نجاح الموظف الجديد لايبدأ من داخل نفسه ، بل إنه ليبدأ من نفس الحاكم الذى عينه ، والذى يتمثل هذه الشروط فى نفسه أولا ، ليسير عماله على طريقه .

لقد رفض سعيد بن عامر أن ينفق ماله فى إعداد بيت الولاية الجديد ليحس الناس بالتغيير ، وتبرع بماله - رغم تحفظ زوجته - فى سبيل اللّه ، ماضياً بذلك على طريق عمر رضى اللّه عنه .

جاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة : (تحت عنوان : الناس على دين ملوكهم :

لما أتى عمر بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه بعود فى يده ويقول : واللّه إن الذى أدى إلينا هذا لأمين . فقال رجل : يا أمير المؤمنين أنت أمين اللّه . يؤدون إليك ما أديت إلى اللّه فإذا رتعت ، رتعوا . قال عمر : صدقت) .

إن خط الإنحراف يبدأ من داخل الحاكم أولاً ، فإذا انغمس فى الحرام قلدته رعيته وهكذا كل مسئول مهما كان حجم مسئوليته . وقد فرض عليه الحذر حساسية إزاء مصالح المسلمين أحس معها بمسئوليته عن كل شاردة وواردة .

رآه عثمان يوماً فى وقدة الحر يجرى ، ثم يعدو ووراء بعير يتهادى معه عبر الصحراء الممتدة فلما سأله عثمان رضى اللّه عنه عن سر جريه قال عمر : بعير من إبل الصدقة فر هارباً فأسرعت وراءه ورجعت به . فقال له عثمان : ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك ؟ فأكد له عمر مسئوليته المباشرة حتى عن هذا الحادث الفردى وذلك فى قوله : من يقوم مقامى فى الحساب يوم القيامة ؟!

---

(١) الأخبار فبراير ١٩٧٦ د . أحمد أمين .

إننا فى حاجة إلى مسئول يراه الشعب قدوة طيبة ، لا يستأثر بسكن والناس يعيشون فى العراء ، ولا بحصة تموينية ومن حوله طوابير المحتاجين تجأر بالشكوى .

ولا يمكن أن يستقيم هذا المعوج بمزيد من القوانين الرادعة : إن القدوة الطيبة هى البديل المانع الجامع .

فى عام المجاعة - ١٨ هـ - أوقف عمر حد السرقة ومع ذلك فلم تحدث حادثة سرقة واحدة ؟ والمفروض كما يرى المنطق أن تنطلق الأيدى ناهبة مغتصبة فى غيبة القانون ، لكن الأمر كان على العكس :

أولا : فالإيمان يعمر القلوب فيعصمها من الزلل .

وثانيا : لأن الحاكم يعيش مع شعبه على الطوى ، فكل الأمة فى الهم شرق .

بل إن حساسية الحاكم حملته على أن يؤثر الناس على نفسه ولو كانت به خصاصة ، ولو كان فى حاجة إلى مزيد من الطاقة تعينه على العمل المستمر المضنى :

روى أبو هريرة رضى اللّه عنه أنه رأى عمر فى عام الرمادة - المجاعة - يحمل على ظهره جرابين من الدقيق وآنية من الزيت فى يده ، يتناوب هو وغلامه - أسلم - فى الحمل ثم يوزعها على الناس .

يقول أسلم : كان عمر زمان الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد ثرد بالزيت ، إلى أن نحروا يوماً جزوراً فغرفوا له من طيبها فأتى به فإذا قطع من سنام ومن كبد . فقال : أنى هذا ؟ قالوا : من الجزر التى نحرنا اليوم . فقال : بخ بخ ، بئس الوالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس عظامها ، إرفع هذه الجفنة - القصعة - .

ما أحوج أمتنا إلى موظفين على مستوى المسئولية يرى فيهم الناس نماذج للورع والتجرد والإيثار . وحين تتوفر لدواويننا الحكومية ومجالسنا القومية هذه

النماذج ، فلن تكون هناك أزمة تمسك بخناق الناس لأن ما يحز فى النفس ليس هو فقدان سلعة ما ، لكن الذى يحطمها ويفجر الغضب فيها : ضياع الأمانة والعفة وفقدان النماذج التى تتسمع وجيب قلوبنا وتعيش حياتنا ، وتجعل من الإيثار خلقا يثمر فينا حبهم وحب وطن يظلنا جميعاً .

● من دعائم الاستقرار :

إن يقظة الناس هنا ، وملاحقتهم للمحافظ ، ثم نقده نقداً موضوعياً ، كان أحدى الدعامات الضرورية لاستقرار الحكم .

ومعنى ذلك أن المسئولية الا تنتهى بمجرد إختيار الموظف الكفء ، وإنما على المجموعة أن تباشر سلطاتها بالمتابعة والنقد ، الذى يتجاوز كل علائق القرابة أو الصداقة ولا يدخل فى الاعتبار إلا المصلحة وحدها ، مهما كانت نسبة الاحراج .

ويروى فى ذلك : أن الحجاج قرّب إليه « إبراهيم بن محمد بن طلحة » وعظم منزلته ، ثم قدم به على عبد الملك بن مروان ، وقال الحجاج لعبد الملك : قدمت عليك برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وهو إبراهيم ابن محمد بن طلحة قال لعبد الملك : عندى نصيحة لا أجد بدا من ذكرها ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال ، فصرف عبد الملك الحجاج من المجلس وقال لابن طلحة : قل نصيحتك ، فقال : « تاللّه يا أمير المؤمنين لقد عمدت إلى الحجاج فى تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وقربه من الباطل فوليته الحرمين وهما ما هما ، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالى والأخيار ، يسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة بعد الذى كان من سفك دمائهم وما انتهك من حرمهم » ولم يخبر عبد الملك الحجاج بما قال ابن طلحة ولكنه عزله عن الحرمين وولاه العراقين واعتذر لابن طلحة عن توليته العراقين بأن فيها من الأمور ما لا يدحضها إلا مثله) .

● اختيار المرأ قطعة من عقله :

إشتاق عمر رضى اللّه عنه يوماً إلى قيادة تتحقق بها آماله ، وحطت

به الأشواق على « عمير بن سعد » كنموذج للرجل القيادى المثالى ، وذلك قوله :

(وددت لو أن لى رجلا مثل « عمير بن سعد » أستعين به على أعمال المسلمين) .

فمن هو « عمير بن سعد » الذى حظى بشهادة أمير المؤمنين ؟

وكيف استجمع عناصر القيادة ؟

لقد كان سياسياً عادلا ، يجمع القوة إلى الحكمة فى مزيج تتكامل به الشخصية ، فتحسن تقدير الأمور ، والإتجاه بها على طريق الكمال .

خطب يوماً على المنبر فى حمص حين كان واليا عليها فقال : (لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ، أو ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ، وأخذاً بالعدل) .

● رصيده من الأخلاق :

وإلى جانب ذلك فقد كان بصيراً باختيار أعوانه من الصالحين المصلحين ، عفيف اليد واللسان ، شجاعاً فى الحق ، ورعاً .

(كتب عمر إليه أيام كان عامله على حمص : أقبل بما جبيت من فئ المسلمين ، فسأله عمر عما عمله فقال : بعثتنى حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهلها ، فوليتهم جباية فيئهم حتى إذا جمعوه ، وضعته فى مواضعه ، ولو نالك منه شئ لأتيتك به ، قال : فما جئتنا بشئ ؟ قال : لا ، قال عمر : جددوا لعمير عهداً ، فقال عمير : لا عملت ولا لأحد بعدك ! والله ما سلمت ، بل لم أسلم ، لقد قلت لنصرانى : أخزاك الله ، فهذا ما عرضتنى له ياعمر ! وإن أشقى أيامى يوم خلقت معك يا عمر) .

فانظر إلى ماضى هذا الرجل النبيل ، وإلى صفحته البيضاء ، ثم إلى ما تمتع به من شجاعة أدبية ساعدته على توزيع المال بالعدل ، إلى حد لم يبق للخليفة

شئ ، فالمهم أن يرضى الحق ، الذى هو أعز من الخلق ! ومع ذلك عذبه ضميره لأنه أساء بكلمة واحدة إلى نصرانى ، وقرر أن يعزل نفسه من وظيفته من أجل فلتة لسان ، ومثل هذا القائد الذى لا يهضم حق النصرانى .. لايمكن أن يفرط فى حق من حقوق المسلمين . ومن لم يرهب الخليفة إعتماداً على ربه ثم على نظافته ، لن يخاف أحداً من رعيته ، وسوف يطبق الشرع بعزم أكيد .

وما أكثر الذين يفرحون بتجديد ثقة المسئول الأول فى الديوان ، وما أكثر التهانى التى تنهال عليهم من أنهار الصحف السيارة ، وقد يكون هذا التجديد وبالاً عليهم من حيث لا يشعرون ، أما « عمير بن سعد » فلم يفرح بقرار تجديد العقد من قبل عمر ، مؤثراً عزلة يخلو بها مع نفسه ، فراراً من المسئولية التى سيحاسبه ربه عليها غداً ، والتى لن يشاركه فى عقباها أحد من المهنئين والمصفقين .

● الرقابة الرسمية الشعبية :

ومع صرامته ودقته رضى اللّه عنه فى اختيار عماله إلا أنه كان يتابعهم ويراقبهم على أوفى معانى الدقة ، ذلك بأن خلال الصدق التى ترشح الموظف لموقع ما ، توضع بمباشرته السلطة موضع الاختيار ، وقد لا تنجح فى مقاومة بريقها فتنحرف ، ومن هنا كان لابد من المتابعة .

جاء فى كتاب « التاج » المنسوب للجاحظ :

(وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد ، على وسادة واحدة .

ولم يكن له فى قطر من الأقطار ، ولا ناحية من النواحى عامل ، ولا أمير جيش ، إلا وعليه عين لا يفارقه ما وجده . فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده فى كل مُمْسى ومُصْبَح) .

● من صور المتابعة :

١ - وإذا كان من حق الشعب أن يتابع ويحاسب ، فإن متابعة عمر رضى

اللّه عنه كانت تتويجاً لهذه الرقابة بما وصلت إليه من تدخل فى أخص خصائص الموظف مادام ذلك لمصلحة عليا معروفة الأسباب .

جاء فى تاريخ الطبرى : كان عمر يتعقب الموظفين حتى فى سيرتهم الخاصة .

تزوج « حذيفة بن اليمان » أجنبية ، فطلب إليه أن يطلقها ، مع أنه تزوجها بشرع اللّه تعالى ، ولكن عمر رضى اللّه عنه رأى فى زواجها إضراراً ببنات العرب أولاً .

وثانياً : فراراً من خداعهن وقدرتهن على السيطرة بالدلال على أزواجهن ، وذلك قوله : (إن فى نساء الأعاجم خلابة - خداعاً - فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم) .

ولم يكن عجباً أن يسبق عمر رضى اللّه عنه كل حركة تستهدف صلاح الإدارة فى الشرق أو الغرب ، عن طريق حماية الموظف من زواج ربما تكون له آثاره الضارة على العمل ، ولو حدث تدخل اليوم من هذا النوع قامت الدنيا ولم تقعد حتى يسقط الحكم ، ولكن عمر لم يسقط لأنه فوق مستوى الشبهات ، والأمة تستجيب لحاكم هو رمزها وعلمها الخفاق .

٢ - (كان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد :

كتب إلى أبى موسى الأشعرى : « إنى قد بعثت إليك « غاضرة بن سمرة العنبرى » بصحف ، فإذا أتاك لكذا وكذا ، فاعطه مائتى درهم ، وإن جاءك بعد ذلك ، فلا تعطه شيئاً ، واكتب إلى فى أى يوم قدم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجد والاهتمام ، والحرص على الأوقات ، وضبط المواعيد ، وهو يعطى من أرسله بالصحف مائتى درهم ، إذا جد فوصل البلد الذى عين له فى الأجل المضروب ، وإلا فإنه يحرم أجره .

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى أيضاً : إذا أتاك كتابى هذا ، فاضرب كاتبك سوطا ، واعزله عن عمله ، وذلك إن كاتب أبى موسى كتب إلى عمر « من أبو موسى » وكان عليه أن يقول : « من أبى موسى » .

والخليفة العادل يضع بهذا أساس المكافآت التشجيعية ، تقديراً للعامل وتنشيطاً لهمم يغريها أن تكون فى عيون الآخرين ، على أن تكون محكومة بمصلحة العمل أولاً وآخراً .

٣ - كان إذا قدم عليه الوفد من بلد سألهم عن أحوالهم وأسعارهم ، ثم يسألهم عن سياسة أميرهم فيهم . (هل يدخل إليه الضعيف ؟ وهل يعود المريض ؟ فإن قالوا نعم ، حمد الله تعالى ، وإن قالوا لا ، كتب إليه : أقبل).

وتأمل كيف يهتم الخليفة بالعامل الإنسانى ، المتمثل فى رعاية الضعفاء ، حتى لا يكون إهتمام الأمير دولة بين الأغنياء والأقوياء ، فيضيع أصحاب الحاجات من الضعفاء .

وإذا كان بناء الجسور ورصف الطرق شيئاً مهما ، فأهم منه كرامة الإنسان الذى يبنى هذه الجسور .

وتدعيما لهذا المبدأ نرى من وصاياه الملزمة ما قاله لأبى موسى الأشعرى : (اخيفوا الفساق ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله قد جعلك أكثرهم حملا) .

٤ - مباشرته الرقابة بنفسه :

من مبادئ عمر رضى الله عنه : مباشرة الرقابة بنفسه ، كلما تيسر ذلك ، وقد جاء ذلك فى كتاب له ، إلى أبى موسى الأشعرى قال فيه : (وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا) .

وقد استعمل رضى الله عنه حذيفة بن اليمان عن المدائن وكتب فى عهده : (اسمعوا له ، وأطيعوا ، واعطوه ما سألكم ، فلما قدم قالوا له : سل ما شئت ، فقال أسألكم طعاماً آكله ، وعلف حمارى ، ما دمت بينكم .

فأقام بينهم ، ثم كتب إليه ، ليقدم عليه . فلما بلغ عمر قدومه ، كمن له

- اختبأ - فى الطريق ، فلما رآه على الحال التى خرج عليها من عنده ، أتاه فالتزمه - ضمه إلى صدره - وقال : « أنت أخى وأنا أخوك ») .

إن الوظيفة كما تبدو تكليف ، لا تشريف : « فرئيس المدينة » لا يطلب أجراً على عمله إلا أن يأكل وجباته الثلاث ، وكفى ! ثم هو قادم إلى أهل المدينة وسيارته ، أو حماره معه ، ولا يطلب فقط إلا الوقود ! على أن يكون ذلك حقه مادام يباشر وظيفته ، فإذا تركها أو تركته ، فلا حق له عندهم .

ويقضى « رئيس المدينة » مدته ، ثم يعود إلى الخليفة كيوم تقلد مهام وظيفته ، بل ربما كان حاله قبلها أسعد منه ، وهو ناهض بتكاليفها !

ويختبئ له الخليفة فى الطريق ، ليكشف الحقيقة بلا رتوش ، فلما رأى عامله كما هو ، لم تغيره الدنيا ، سعد به أيما سعادة ، بل واحتضنه معلنا على الملأ أنه أخوه ، على طريق الحق .

وكفى بهذه الصورة المشرفة دليلا على يقظة الحاكم ، وإخلاص المحكوم ، على نحو يشجع الآخرين على الوفاء والالتزام .

٥ - كان يستدعى عماله ليكشف المخبؤ من أحوالهم ، وليكون ذلك بنفسه وعلى عينه ، وحتى لا يقع فى كمين قد يدبره الوشاة الماكرون .

وقد كتب إلى ابى موسى الأشعرى - عامله على العراق - يأمره بالقدوم عليه وهو وعماله ليقف على أحوالهم بعدما بلغه من تنعمهم ، وتنكبهم طريق الزهد الذى وصاهم به ، وأخذ نفسه به . وقد عزل عمر جميع عمال أبى موسى ، وأبقى عامل البحرين لما رأى من تقشفه دونهم .

● الإحساس بالمسئولية :

وما ألزم عمر نفسه بهذه الدقة إلا فرط إحساسه بمسئوليته .

عن عبد الله بن عمر قال : (قال رسول الله ﷺ : كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير راع على رعيته ، ومسئول عنهم ، والرجل راع على أهل

بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت زوجها ، وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه) .

قال أبو حاتم رضى اللّه عنه : (صرحت السنة عن المصطفى ﷺ ، بأن كل راع مسئول عن رعيته ، فالواجب على كل من كان راعيا لزوم التعاهد لرعيته .

فرعاة الناس العلماء ، وراعى الملوك العقل ، وراعى الصالحين تقواهم ، وراعى المتعلم معلمه ، وراعى الولد والده ، كما إن حارس المرأة زوجها ، وحارس العبد مولاه ، وكل راع من الناس مسئول عن رعيته ، وأكثر ما يجب تعاهد الرعية للملوك ، إذ هم رعاة لها . وهم أرفع الرعاة لكثرة نفاذ أمورهم ، وعقد الأشياء وحلها من ناحيتهم ، فإذا لم يراعوا أوقاتهم ، ولم يحتاطوا لرعيتهم ، هلكوا ، وأهلكوا ، وربما كان هلاك عالم فى فساد ملك واحد ، ولا يدوم ملك مالك إلا بأعوان تطيعه ، ولا يطيعه الأعوان إلا بوزير ، ولا يتم ذلك إلا أن يكون الوزير ودوداً نصوحاً ، ولا يوجد ذلك من الوزير إلا بالعفاف والرأى ولا يتم قوام هؤلاء إلا بالمال ، ولا يوجد المال إلا بصلاح الرعية ، ولا تصلح الرعية إلا بإقامة العدل ، فكان ثبات الملك لا يكون إلا بلزوم العدل ، وزواله لا يكون إلا بمفارقته » [(١)] .

● هيبة الموظف :

وكان على شدة فيه على عماله ، إذا أحس باعتداء ، أو شبه اعتداء وقع على أحدهم ، يشتد على المعتدين فى تلك الناحية ، ليبقى للعامل هيبة توقره فى الصدور ، ومهابة يلجم بها العامة والخاصة .

(وقع له مرة أن حصب [(٢)] أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوضهم إماماً مكان إمام كان قبله فحصبوه ، فغضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، ودعا عليهم) .

---

(١) ابن حبان : روضة العقلاء ٢٦٨ / ٢٦٩

(٢) رموه بالحصى .

● مساءلة الشاكين :

وكان من حفظة لهيبة عماله أنه لم يكن بفتح صدره لكل شكوى ، وإنما كان يسأل الشاكى فيما يشبه المحاكمة ، سداً لهذا الباب الذى إن فتح بلا يقظة جر الأمة إلى شر مستطير ، وقد تكون الشكوى كيديه ، وقد يحمل عليها ضيق النظر ، وضيق الصدر أيضاً ، وإذن فلابد من التدقيق قبل أن يصير الأمر فوضى .

ذكر الطبرى فى تفسيره ، ونقله ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ [1] أن بعض المصريين شكوا إلى عبد اللّه بن عمرو بن العاص - وكان عمرو والياً على مصر - ان بعض أمور الدين لا تطبق فى الشعب ، وطلبوا رفع الشكوى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ، فلما ذهبوا إلى المدينة سأل عمر واحداً منهم : هل قرأت القرآن كله ؟ قال : نعم . قال : هل عملت بكل ما فيه ؟ قال : لا ، وكذلك قال الآخرون ، فقال عمر : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب اللّه ؟ قد علم ربنا أن سيكون لنا سيئات ، قال تعالى : وتلا الآية السابقة ، ونهرهم ، وأمرهم أن يكتموا ذلك الخبر وإلا عاقبهم) .

● تعليق :

فى هذا الموقف دروس وعبر ، تعكس الوعى الإسلامى بقضايا الأمة من قبل شباب مصر ، وكيف كان منهج تفكيرهم وعملهم :

١ - الشباب هنا مشغول بحاضر أمته ومستقبلها : يتابعون الممارسات اليومية ، للتأكد من مطابقتها لشريعة الحق ، فلما رأوا بعض المخالفات ، لم يشكلوا جبهة تناجز الخطائين بالقوة ، حتى لا تتافقم الأمور ، وكانت حليتهم الصبر الذى يمثل نواة الإحتمال والروية - وفى مواجهة المعصية التى تطل بقرنها - والذى عبر عن نفسه بإحالة القضية إلى ولى الأمر .

---

(١) النساء : ٣١

ويقدم لنا الدليل والبرهان ، حتى تطمئن قلوبنا ، وكلما أنصتنا له فى كتابه العزيز نجده يدير معنا حواراً باهراً ، يدعونا للتأمل والتفكير ، وإعمال عقولنا ، والإرتفاع إلى نوره ، حتى لقد رفع موسى عليه السلام إلى مستوى الحوار المباشر معه ، واجتاح الشوق موسى وهتف : ربى دعنى أراك) [1] .

٦ - وأسفر الحوار الخاطف عن معنى جدير بالتأمل ، وهو أن الشباب يحاكم الوالى إلى مقياس يدينهم هم أولاً ، فإذا كان من حقهم أن يعبروا عن وجهة نظرهم ، وأن يضعوا الوالى موضع المساءلة ، فقد كان من واجبهم قبل ذلك أن يتهموا أنفسهم بالتقصير أولاً ، فهم لم يعطوا القرآن حقه من الفهم والتدبر ، هذا القرآن الشاهد بأن كل بنى آدم خطاء، ولو قد فعلوا لالتمسوا العذر للوالى المتهم ، لا سيما وهم لم يرتفعوا إلى مستوى الإسلام علما وعملا ، وإذن ، فمن حالك ، أعذر أخاك !

٧ - وحتى لا تكون الشكوى حرفة يتاجر بها الفارغون ، وحتى لا تهتز شخصية المسئول ، نرى الخليفة الحكيم يعالج الموقف بما يسد الذرائع ، لتتراجع مشاعر الإنتقام ، ويلتئم الجرح ، ويشغل كل إنسان بإصلاح عيبه أولاً ، قبل أن يشغل نفسه بعيوب الآخرين ، وها هو ذا رضى اللّه عنه : يعنفهم ، حتى لا يعودوا ، ثم يأمرهم بكتمان الخبر ، حتى لا تسرى عدواه ، فإذا لم يلتزموا ، فإنهم يعرضون أنفسهم للعقاب .

إن أعداء الإسلام قد يستثمرون مثل هذه الشكاوى سبيلاً إلى زلازل العقيدة ، وزعازع الآراء (كى تخور القوى ، ويتبع الهوى ، وتعم البلوى ، كى لا يعز دين ، ولا يقوى يقين ، ولا يتم تمكين ، كى يكون البأس بين المؤمنين شديداً ، ومجدهم حصيداً ، وأملهم بعيداً) .

وإذا كان أعداؤنا يريدون لليل مداً ، وللفجر بعداً ، بخلق جو من التوتر بين

---

(١) المرجع السابق .

ويقدم لنا الدليل والبرهان ، حتى تطمئن قلوبنا ، وكلما أنصتنا له فى كتابه العزيز نجده يدير معنا حواراً باهراً ، يدعونا للتأمل والتفكير ، وإعمال عقولنا ، والإرتفاع إلى نوره ، حتى لقد رفع موسى عليه السلام إلى مستوى الحوار المباشر معه ، واجتاح الشوق موسى وهتف : ربى دعنى أراك) [1] .

٦ – وأسفر الحوار الخاطف عن معنى جدير بالتأمل ، وهو أن الشباب يحاكم الوالى إلى مقياس يدينهم هم أولاً ، فإذا كان من حقهم أن يعبروا عن وجهة نظرهم ، وأن يضعوا الوالى موضع المساءلة ، فقد كان من واجبهم قبل ذلك أن يتهموا أنفسهم بالتقصير أولاً ، فهم لم يعطوا القرآن حقه من الفهم والتدبر ، هذا القرآن الشاهد بأن كل بنى آدم خطاء، ولو قد فعلوا لالتمسوا العذر للوالى المتهم ، لا سيما وهم لم يرتفعوا إلى مستوى الإسلام علما وعملا ، وإذن ، فمن حالك ، أعذر أخاك !

٧ – وحتى لا تكون الشكوى حرفة يتاجر بها الفارغون ، وحتى لا تهتز شخصية المسئول ، نرى الخليفة الحكيم يعالج الموقف بما يسد الذرائع ، لتتراجع مشاعر الإنتقام ، ويلتئم الجرح ، ويشغل كل إنسان بإصلاح عيبه أولاً ، قبل أن يشغل نفسه بعيوب الآخرين ، وها هو ذا رضى اللّه عنه : يعنفهم ، حتى لا يعودوا ، ثم يأمرهم بكتمان الخبر ، حتى لا تسرى عدواه ، فإذا لم يلتزموا ، فإنهم يعرضون أنفسهم للعقاب .

إن أعداء الإسلام قد يستثمرون مثل هذه الشكاوى سبيلاً إلى زلازل العقيدة ، وزعازع الآراء (كى تخور القوى ، ويتبع الهوى ، وتعم البلوى ، كى لا يعز دين ، ولا يقوى يقين ، ولا يتم تمكين ، كى يكون البأس بين المؤمنين شديداً ، ومجدهم حصيداً ، وأملهم بعيداً) .

وإذا كان أعداؤنا يريدون لليل مداً ، وللفجر بعداً ، بخلق جو من التوتر بين

---

(١) المرجع السابق .

الحاكم والمحكوم ، فلا بد أن نقطع عليه السبيل ، وأن نحيط ما يدبر فى ناديه من منكر .

● أهمية الحكمة :

يقول الحق سبحانه : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ [1] .

يقول الشيخ عطية صقر [2] :

(وهى آية من سورة نزلت بمكة ، تطبق فى مجتمع يسوده الكفر ، ويتحكم فيه الجهل ، لابد لإصلاحه من إستعمال الحكمة ، فكيف بالمجتمع المؤمن الذى يراد إصلاح ما دخله من فساد ؟ إن ذلك يحتاج مع الحكمة الموعظة الحسنة ، والمتشددون فى حكمهم على مجتمعات المسلمين بالكفر قاموا بأساليب بعيدة عن الحكمة التى وجه اللّه إليها من هو قدوة الجميع فى معاملته مع الكفار ، إن الإنطلاق فى إصلاح المجتمعات الإسلامية من الجزم بكفرها لمجرد وجود بعض السلبيات التى لا يوافق عليها الدين ، إنطلاق خطأ ، لأن كل مجتمع على مدى التاريخ الطويل ، فيه سلبيات يمكن إصلاحها بوسيلة سلمية من أجل التقليل منها بقدر المستطاع ، لأن محوها بالكلية لا يتحقق ، لأنه يناقض الطبيعة البشرية ، التى فيها الخطأ والصواب ، وبقدر ما تقل السلبيات يكون المجتمع أقرب إلى الكمال) .

● صوت الأمير وصوت الضمير :

إن الاعتراف بواقع الطبيعة البشرية ، ثم مزاملتها بالموعظة الحسنة أجدى فى ميزان العدل من تجييش الجيوش من الشباب فى الساحات الكبرى ، حيث تلقى الخطب العصماء ، ثم تسيل أنهار الدموع بين هاتيك الجموع !

---

(١) النحل : ١٢٥

(٢) نعم الإسلام هو الحل ٣٣/٣٤

إن إنفتاح القلب المؤمن الحساس على كل الناس والأجناس ، سبيل إلى رحمة اللّه تعالى ، التى هى قريب من المحسنين إلى أنفسهم بالتوبة ، وإلى العصاة بالتماس الأعذار .

أما التقوقع ، وفرض العزلة على مجموعة من الأتباع بحسبانهم دولة داخل الدولة ، وأن الطهر حكر عليهم دون من سواهم ، فتلك أنانية لا تستحق رحمة اللّه تعالى ، وإذا كان هناك من يمكنون لهذه العزلة كانما هى طوق النجاة ، فإن واجب الشباب المستنير أن يعلم إن صوت الضمير يجب أن يكون أعلى من صوت الأمير !

● آثار التربية العمرية وآصار التربية الثورية !!

وهكذا بدت ملامح التربية العمرية :

أ - فأبواب الحكام مفتحة ، بلا حجاب .

ب - والأمة تحمل همومها إلى المسئول الأول ، والذى يتسع قلبه لشكاتها ، على نحو لا يسمح للعقد النفسية أن تعشش ، وتبيض .

جـ - يحس الشباب تحت مظلة الحوار بأنهم شركاء فى إدارة دفة الأمور ، فإذا كان تقصير ، فهو مسئوليتنا جميعاً ، وإذن فنحن أحق بقسط من اللوم ، لأن الخلل من صنعنا جميعاً ، وليس الحاكم بأولى به منا .

د - تتعد الآراء ، وتختلف زوايا الرؤية ، فيكون النجاح مضموناً ، وإذا كان هناك من فشل ، فهو ضئيل النسبة .

هـ - يحس المسئولون عن مواقع العمل بظهورهم محمية من الشكاوى الكيدية وما يترتب عليها من خلل فى سير العمل ، ليصير الوقت الذاهب فى التحقيقات طاقة عمل وإنتاج .

و - إن تيقظ ملكة النقد الهادف لدى الأمة إنما هو رأى عام حارس يعين الحاكم على أمر اللّه تعالى ، فلا تتراكم الأخطاء تراكماً لا يجعل للتخطيط قيمة ، ولا للتدبير وزناً .

تلك بعض الآثار الطيبة المترتبة على التربية الإسلامية ، والتى كان عمر رضى الله عنه نموذجاً لها .

فماذا عند « الثوار التقدمين » الذين أسكتوا كل صوت وشلوا كل إرادة ؟

نقرأ فى ذلك :

(إن بعض المناطق فى دولة من الدول تذمرت من وجود ناقة يملكها الحاكم العام ، لأنها تتلف الزرع الذى تقوم عليه حياتهم ، وهم لا يستطيعون مسها بسوء خوفاً من بطش الحاكم ، فأرسلوا وفداً منهم لمقابلته فى مقره البعيد ، ليرفعوا إليه شكواهم ، فاختاروا مائة منهم يتحركون فى الصباح الباكر ، فلم يجتمع منهم لبدء المسيرة إلا نصف هذا العدد ، وأثناء الطريق تسلل البعض ، وإنتهى العدد إلى عشرة وهم على باب القصر الأميرى ، ولما أذن لهم بالدخول ، وقفوا صفاً واحداً أمام الحاكم ، فطلب أن يتقدم منهم واحد ينوب عنهم فى الكلام ، فجبنوا جميعاً ولم يتقدم أحد ، ولما أحس كبيرهم أن نتيجة الجبن قد تكون القتل أو التنكيل بالجميع ، تقدم هو خطوة ، ثم قال : جئنا لنشكر عظمتكم من كل قلوبنا على تشريف منطقتنا باختيارها لترعى فيها ناقتكم ، ولما كنا نخشى - بعد عمر طويل - أن يصيبها سوء ، أحببنا أن يدوم لنا هذا الشرف ، فنلتمس من كرمكم العظيم ، وحبكم للرعية أن ترسلوا لنا جملا يعيش مع الناقة ، لعلها ترزق ببعير نسعد به كما سعدنا بأمه .

فما كان من الحاكم إلا أن شكرهم ، ولبى رغبتهم ، وأمر بإرسال جمل يعيش مع الناقة ، ولما انصرفوا دهش الوفد من رئيسهم كيف يتصرف هذا التصرف ، فقال لهم : اتفقنا على أن يكون الوفد مائة فانتهى إلى عشرة ، فعقاباً لكم على جبنكم جئتكم بجمل آخر مع الناقة) .

وهكذا يفعل القادة « الثوار التقدميون » بشعوبهم ، حين يفرضون رأيهم الذى يحبط كل رأى ، فلا تجد من الرعية إلا الجبن ، والنفاق ، ويتحول المجتمع إلى أصفار إلى الشمال ، وبمرور الزمن ، يتضخم إحساس الحاكم بذاته فلا يرى

غيره جديراً بالحياة ، وكل من بقى حياً ، فلحسابه هو ، ومن هنا يبطش بلا رحمة، فلا تهزه أنات المطحونين ، ولا تمسك يده دماء ولا ضحايا ، ولا يحس بلعنات الأمة التى تصبح سحاباً أسود يجلل حياته بالعار ، والتى تطارد أحلام يقظته ومنامه ، وهكذا الطغاة دائماً : (لا يريدون لصوت أن يرتفع ، يرفضون ما أحل اللّه لنا ، ما كرمنا به . الحاكم المستنبد يفرض الصمت والخوف ، يمقت كل الأسئلة . تتولى العزف « جوقة » المرائين والمداحين والمتزلفين ، يتقيئون نشيداً واحداً ، مهانة وخذلان ، يتوقف الحوار الخصب ، تحرقت العقول ، وتصبح أمة من الهالكين) [١] .

ولكن عمر رضى اللّه عنه ، كان الحاكم المستنير : (بالحوار يهتدى ، يستمع إلى صوت شعبه ، حديث البسطاء ، ينصت إلى غضبهم ، المهم ، حيرتهم ، قلقهم ، يدير حواراً مباشراً مع الجماهير ، وخلال الحوار تتضح كثير من الحقائق، ومن الأخطاء ، وتبرز فكرة جديدة ، وتنطلق تلك الشرارة المقدسة ، ويهتدى القوم إلى الصراط المستقيم) [٢] .

وفى هذا الجو الصحى ، تنضج شخصيات الشباب القادرين على أن يقولوا للحاكم فى أدب : لا ، فإذا أدى الحاكم دوره و،ذهب إلى ربه ، خلف من بعده رجالاً يواصلون المسيرة ، وذلك هو الفارق الهائل بين تربية الأحرار ، وتربية الثوار !!

ومهما ادعى التقدميون أنهم وصلوا ، فإن الواقع يكذبهم ، ونستعير هنا تعبير الرافعى : إنك لو غرست فى جناح غراب ريشة من الطاووس ، لتكون زرعاً ينبت الريش من مثله ، فينقلب الغراب من ذلك طاووساً يزدهى ، ويتخايل ويبرق ، ويرف بألوانه وتحاسينه ، فإنه قد ينقلب طاووساً قبل أن يكون « الثورى » مربياً أو فليسوفاً !!



(١ – ٢) قضايا قرآنية ٧١ / ٧٢

الفصل الثانى

من فقه عمر فى محاسبة المنحرفين

فى محاولته رضى اللّه عنه إرساء دعائم العدل ، كان يتصدى لكل بادرة تخرج عن سواء الصراط .

إن المهمة العمرية لم تقف عند حد الورع والإيثار ، وإنما كان لها بعد آخر ، حين تدخل فى الوقت المناسب ليقوم المعوج ، ويؤدب المنحرف ، ويحاسب المسْتغل ، حماية للمجتمع من جراثيم الفساد .

وتلك خطوة على طريق الإصلاح تميز بها الفاروق رضى اللّه عنه ، لا تكتفى بالورع كفضيلة نفسية يتذرع بها المسلم ، ثم لا عليه إذا انحرف الآخرون ، وإنما تحمل على الشر فى كل مظانه فى حركة إيجابية تتصدى له مهما كان فاعله .

● من أين لك هذا ؟

مر ذات يوم ببناء يبنى عمارة فقال : لمن هذا ؟ فذكروا له عاملا على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ! ثم شاطره نصف ماله .

وما كان للخليفة العادل الصارم أن يتخذ هذا القرار الفورى لو كان فى حياته دخل ، أو امتدت يده إلى بيت مال المسلمين ، ولكنه يسخر بمنطقة من عامله ، ثم يحكم عليه بدفع نصف ثروته ، جاعلاً من ذلك نكالاً له ولغيره من العمال الحراس على أموال الشعب ، لأنه نظيف ، عفيف ، فكان له مقال يهز الرجال !

وقد سمعنا فى أزمان خلت عن إنحرافات ظلت معروضة للفصل فيها زماناً طويلاً ، وربما تاهت معالم الحق فيها لأن المسئول الأول فى الجهاز الحاكم كان له ضلع فيها ، ومن ثم فلا يملك القوة الرادعة ، وهذه آثار فأسه ؟!

● عمر .. وقضية تزييف خاتم الدولة :

قام أعرابى بتزييف خاتم الخلافة ، فأصاب مالا وفيراً من خراج الكوفة ، وكانت للخليفة بطانة خيرة تعينه على أمر اللّه ، نظيفة اليد مثله ، ومن ثم فلم تتردد فى إبلاغه بما حدث ، فأمر عمر واليه على الكوفة « المغيرة بن شعبة » أن يقبض على المتهم ، إلى أن يأتيه أمر جديد من الخليفة ، وقد تحايل المحتال الداهية على « مغيرة الرأى » وأفلت من قبضته هارباً إلى المدينة يطلب صفح الخليفة الذى رفض رجاءه فى حزم ، ثم جمع الناس طالباً رأيهم فى المتهم الهارب . قال قائل : إقطع يده . وقال آخر : بل اصلبه . فالتفت الخليفة إلى على رضى اللّه عنه وطلب رأيه فقال : ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال : يا أمير المؤمنين : رجل كذب كذبة ، عقوبته فى جلده . فضربه عمر ضرباً شديداً ، وحبسه .

ولا يعدم المحتالون وسيلة يقاومون بها صولة الحق ، فلقد احتال السجين ووسط قريشاً لدى الخليفة الذى رفض الوساطة المفروضة وأحبط مفعولها قائلاً : ذكرتنى الطعن ، وكنت ناسياً .

واستدعاه وضربه ، ثم عاد به إلى السجن مرة أخرى محذراً فى نفس الوقت كل من تسول له نفسه حماية المجرمين ، معلنا أن كل شفاعة فى حق من حقوق اللّه أو المجتمع ، ساقطة !!

ولما أعيت الأعرابى حيله ، طلب من كل أصدقائه ألا يذكروه عند الخليفة فراراً من العقاب المتوقع !!

وأخيراً ، أخرجه عمر من السجن ، ثم قاسمه ماله ، بعد رحلة مضنية من السجن والعذاب ، والغرامة ، حتى لا تتكرر الحادثة .

ويعد تحد واضح لكل من يتدخل لحماية أعداء الشعب الذين يتاجرون بأقداره ، محطماً بذلك دولة المستغلين .

● المنحرفون ملة واحدة !

فانظر كيف استغل المنحرف ذكاءه ، وكل إمكاناته ، فاستطاع الهرب من قبضة الداهية الباقعة « المغيرة بن شعبة » والذى قيل عنه : لو كان داخل سور له سبعة أبواب لا ينفذ إلا من واحد منها ، وبكل حيلة لنفذ منه المغيرة ، ومن كل الأبواب !!

ولم يكن المنحرف ليستطيع الهرب إلا بأعوان يغدق عليهم فيعينونه فى محنته ، ولما وصل المدينة وجد له أصدقاء وأعواناً أيضاً كانوا همزة الوصل بينه وبين الخليفة ، كأنما كان دولة داخل الدولة ، ولولا عين الخليفة الساهرة ، ورجاله الأيقاظ لعشش الشر وباض ، وإستحال التغلب عليه .

وأمر آخر .. فلا يملك المتهم هنا ورقة يلعب بها ضد الحاكم أو واحد من أسرته أو أعوانه يلوح بها حتى يتفلت من العقاب .

ونحن أحوج إلى حاكم وإلى موظف ، مفتح العين قوى الإرادة ، قوة مردودة إلى نظافته وعفته ، ليمكن الضرب بشدة على كل يد آثمة ، فالمنحرفون موجودون فى كل عصر ، ومصر ، سنة اجتماعية لا تتخلف ، فإذا قطع العدل عليهم الطريق ، سارت الحياة على طبيعتها ، إلى غايتها .

● التغيير الوزارى !

عندما يبلغ الكتاب أجله وينتهى الموظف أو القائد من إنجاز مهمته فى مرحلة ما ، فإن المصلحة قد تفرض تغيير المواقع ، مع الاحتفاظ للمعزول بالتقدير والاحترام ، ذلك بأن ألسنة الفارغين قد تطول ، مطلقة الشائعات حول الموظف المعزول ، ولابد من إبراز ذمته وفاء من الدولة له ، وتقديراً لمجهود بذله فى خدمتها زمناً .

(لما عزل عمر بن الخطاب « شرحبيل بن عبد الله » (١) ، واستعمل معاوية

---

(١) هو شرحبيل بن حسنة – وهى أمه . كان والياً على الشام لعمر ، وكان من وجوه قريش ، أسلم قديماً ، وهاجر إلى الحبشة .

ابن أبى سفيان مكانه ، جاءه شرحبيل ، وقال له : عن سخط [١] عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟! قال : لا . إنك لكما أحب ، ولكن أريد رجلا أقوى من رجل ، فقال شرحبيل : قم فاعذرنى [٢] فى الناس ، لا تدركنى هجنة [٣] . فقام عمر فى الناس خطيباً ، فقال : أيها الناس : إنى - واللّه - ما عزلت « شرحبيل » عن سخطة ، ولكنى أردت رجل أقوى من رجل !!) [٤] .

● الحق أولاً :

ونذكر هنا موقف عمر رضى اللّه عنه من جبلة بن الأيهم الغسانى وكان من ملوك آل جفنة أسلم هو وقومه وحضر لزيارة عمر هو وأهله فى خمسمائة من أهل بيته فى كامل زينتهم ففرح به عمر كقوة جديدة للإسلام فادنى مجلسه وخرج معه للحج وبينما هو يطوف حول الكعبة وطئ إزاره رجل من بنى فزارة فانحل الإزار فضرب الفزارى على وجهه فحطم أنفه فاشتكى عند عمر وأقر جبلة بما هو منسوب إليه فقال له عمر : « إن الإسلام قد سوى بينكما فلست تفضله بشئ إلا بالتقى والعافية » قال جبلة : قد ظننت يا أمير المؤمنين - أنى أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية - قال : دع عنك هذا فإنك إن لم ترض الرجل اقتصصت منك ، فلما استيقن جبلة من ذلك فر هارباً إلى القسطنطينية وتنصر هو وقومه » [٥] .

فعمر يحرص على تأكيد المساواة أمام القانون ولو أدى الأمر إلى فقد كسب كبير للإسلام من القوى المؤيدة له) [٦] .

---

(١) السخط والسخطة الكراهية وعدم الرضا .

(٢) أى إظهر عذرى بين الناس .

(٣) لا يلحقنى عيب .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق ٦ / ٣٠٢ : ٣٠٣

(٥) القضايا الكبرى فى الإسلام - للأستاذ / عبد المتعال الصعيدى ، ص ١٠٩ . فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٤٢

(٦) الحريات العامة : د . عبد الكريم حسن العيلى - دار الفكر العربى ١٩٧٤ ص ٣٧٣

أجل ، لقد كانت القبيلة كثيرة العدد ، قوية الشكيمة ، ومثلها يصبح سنداً للحق وأهله ، ولكن عمر لا يحرس حدود الإسلام بالحصون والقلاع ، ولكنه يحرسها بالعدل ، فليسقط جبلة وقومه ، وليحيى العدل !

● عمر .. القدوة :

ولقد كان التوفيق حليفه رضى اللّه عنه ، لأنه بدأ بنفسه أولاً ، هذه النفس التى كان يحاسبها حساباً عسيراً ، على النقير والقطمير ، فلا غرو ، كان صوته عاليا ، وإرادته ماضية فى محاسبة المنحرفين .

ومن حساسيته المفرطة ما روى : انه رضى اللّه عنه استأجر دابة ، ليعود مريضاً فى بلد قريب ، وأثناء سيره علقت قطعة من ثوبه بفرع شجرة ، فاستوقفه أحد المارة ، ونبهه إلى ذلك ، فرجاه عمر أن يمسك بعنان الدابة ، حتى يذهب لإحضار ما علق بالشجرة ، فلما عاد عمر ، قال له الرجل : عجباً يا أمير المؤمنين : لماذا لم تتركنى أحضر لك ما فقدت ، أو تعود أنت بالدابة لإحضاره ؟ قال عمر : أما الوشاح ، فهو لى ، وأنا أولى بإحضاره منك ، وأما الدابة فقد استأجرتها من صاحبها لأركبها من بيتى إلى بيت المريض ، فلا يحق لى أن أركبها مسافة لم أدفع ثمنها !! قال الرجل : ولكنه أمر هين يا أمير المؤمنين ، قال عمر : ألم تسمع قول اللّه تعالى : ﴿ وتحسبونه هينا وهو عند اللّه عظيم ﴾ .

ويعلق على هذا بعض الكاتبين فيقول :

(ترى ما رأى السادة الذين يستخدمون السيارات الحكومية بحكم مناصبهم فى تنقلاتهم وتنقلات أسرهم الخاصة ؟ ألا يرون فى صندوق التوبة فرصة سانحة ينتهزونها لرد ما دخل فى ذمتهم حراماً من أموال الدولة ، قبل فوات الأوان) ؟

● عزل الحازمين لا عزل الحاقدين :

كان عمر بن الخطاب جالساً فى المسجد ، فمر رجل ، فقال : ويل لك يا عمر من النار !! فقال عمر : قربوا هذا الرجل منى . فلما اقترب الرجل منه قال له

عمر : لماذا قلت ما قلت ؟ قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إنك حين تعين عمالك تشترط عليهم شروطاً ، ثم لا تنظر هل وفوا بهذه الشروط أو أهملوها . قال الرجل : أقصد عاملك على مصر ، لقد ترك كل ما أمرته به ، وما نهيته عنه ، وهو قد فعل كذا وكذا ، وراح يتحدث عن أفعاله . أرسل عمر على الفور رجلين من الأنصار وقال لهما : إذهبا إلى مصر ، وانظروا فى أمر العامل عليها ، وأسألا الناس ، فإن وجدتماه ينفذ ما اشترطته عليه ، فلا تكلماه ، وإن رأيتماه لا يهتم بأمر المسلمين ، أو يسئ معاملتهم ، فأتيانى به .

ذهب الرجلان إلى مصر وسألا الناس ، فأجمعوا على أن الرجل الذى ولاه عليهم أمير المؤمنين يسئ معاملتهم .

فانطلقا إلى بيته واستأذنا عليه ، فقال الحاجب : إنه لا يأذن لأحد بالدخول عليه اليوم . فقال الرجلان : أما أن يخرج ، وإما أن نحرق عليه الباب ، ثم أشعل أحدهما شعلة من نار . ولما رأى الحاجب شعلة النار ، أسرع وأخبر الأمير ، فخرج إليهما ، فقالا له : إنا رسولا عمر إليك ، طلب أن نأتى بك إليه ، ثم أركباه ، وعادا به إلى المدينة ، وحين رآه عمر ، لم يعرفه ، لأنه إبيض وسمن ، وكان أسمر نحيلا . فقال له : من أنت ؟ فرد الرجل : أنا عاملك على مصر ، أنا فلان . فقال له عمر : ويحك ! فعلت ما نهيت عنه وتركت ما أمرت به ، والله لأعاقبنك عقوبة شديدة .

ثم قال : احضروا كساء من صوف – جبة مشقوقة من الأمام – وعصا . وثلاثمائة شاه من غنم الصدقة . ثم قال للرجل : إلبس هذه الجبة ، فقد رأيت أباك ، وهذه خير من جبته ! وخذ هذه العصا ، فهى خير من عصا أبيك ! واذهب بهذه الشياه ، فارعها فى مكان كذا ، واترك الناس يشربون من ألبانها إلا آل عمر .

لبس الرجل الجبة ، وخرج بالشياه إلى المكان الذى حدده أمير المؤمنين ، وكان يوماً شديد الحرارة . فرجع آخر النهار ، وقال لعمر : لا أستطيع هذا ، فإن شئت

فاضرب عنقى !! فقال له عمر : إن رددتك فأى رجل تكون ؟ قال الرجل : واللّه لا يبلغك بعدها إلا ما تحب ، فرده عمر إلى مصر ، وكان نعم الرجل .

● ضمان الحياة :

يقولون : إن حرية الرأى ، وضمان حق المواطن فى أن يقول للحاكم : لا .. وإن يخاطبه بما لا يعجبه .. دون أن يفقد الناقد حياته .. هذا هو التأمين الحقيقى لحياة الأمم .

وكم تكون الصورة أجمل وأكمل .. عندما يكون الحاكم شجاعاً .. بصيراً بعواقب الأمور .. فيفتح صدره للنقد الهادف .. واعيا بحجم « فاتورة » البطش بالرأى الآخر .. وإلى أى حد كانت على مدار التاريخ باهظة التكاليف .. بقدر ما كانت مواجهة المشكلات .. سهلة ميسرة .

وويل لحاكم لا يريد أن يسمع إلا صوته .. ولا أن يسود إلا رأيه .. ومن آصار ذلك : التمزق والضياع .

ضياع ذلك الحاكم الأنانى .. الذى يغريه مدح الآخرين له . بما ليس فيه .. وهو عنهم راضٍ وهم أنفسهم الذين سيذمونه غداً بما ليس فيه .. وهو عليهم ساخط وبين نشوة التملق .. والتبرم بالنقد .. يتمزق القلب .. تفاريق .. وتذهب النفس حسرات .. ثم يكون الدمار والخراب نتيجة حتمية لهذا النفاق .. الأمر الذى يفرض على عقلاء الأمة إزالة الظروف ، وتنحية الأرض التى تنبت هؤلاء الطغاة .

وكم من أسماء كبيرة .. ما كان لها أن تكون شيئاً مذكوراً .. لولا إننا استنبتناها فى أرض التزلف .. والنفاق !

إن « إرادة التغيير » قد تكون كامنة فى نفس الحاكم .. ولكن تبقى بعد ذلك « إدارة » هذا التغيير .. هل هى لحساب الحق .. أم لهوى الحاكم ؟

فإن كانت الأولى : فبها .

وإن كانت الثانية : فقد حفرت الأمة قبرها بيدها .. عندما مكنت لظالم على أرض نفوسها .. فحطم إمكاناتها فى لحظة جنون ، أو لحظة مجون !

وهنا يتراجع الإحساس بكرامة الفرد .. والتى تضمر فى وعى الطغاة .. الذين لا يحظى برضاهم إلا منافق عليم اللسان .. يقدم الشعارات الجوفاء طعاماً للمعدة الخاوية .. بينما الخناير كما يقولون تأكل الخبز !

ثم تلد الحية .. الحية .. ويمضى سدنة النفاق فى طريقهم .. وعلى طريقتهم : يملأون الدنيا قهراً .. بعد أن ملأوها فقراً !!

● عمر .. النذير العريان :

وهذا الموقف الذى نعالجه .. واحد من مواقف عمر المشرفة الهادفة إلى وقاية الأمة من هذا المصير الرعيب .. بما فيه من دروس وعبر .. فماذا نجد ؟

رجل واحد .. من عامة الشعب .. لا يعرف اسمه .. لديه من الشجاعة الأدبية ما يواجه الحاكم بهذا المنطق الصارم العنيف فى نفس الوقت .

ومن عنف المنطق :

أ – انه يتوعده بالويل والثبور ، وناهيك بالويل وعيداً شديداً .

ب – ثم يخاطبه .. مواجهة بقوله : (.. لك ..)

جـ – ومناديه باسمه المجرد : يا عمر .

د – ويختم الهجوم الخاطف بالتلويح بالنار الكاوية .

● الحاكم يقبل النصيحة :

لم يعاجله الحاكم برصاصة تودى بحياته ، ولكنه فتح صدره ، وأمر أعوانه أن يقربوه منه ، فطامن أولاً من غليان صدور الأعوان من الغيظ ، ثم عاد بالناقد المهاجم من فورة انفعاله .. إلى الهدوء الباعث على كشف الحقيقة ، وتبيان بواعث النصيحة ، وكأن سؤال عمر . (لماذا قلت ما قلت) كان إستيضاحاً ، ولم يكن تحقيقاً .

فلما رأى الرجل أن الحاكم قد قبل النصيحة ، ثم بدأت إجراءات الحل الإسلامى .

لم تعد هناك مشكلة . لأن المشكلة ليست فى النصيحة ، ولكن فى قبولها .

وإذن فقد بدأ الناقد المنفعل يعود إلى رشده ، وتعود إليه صورة عمر .. الفاروق العادل .. الذى يدين له بتلك الشجاعة الأدبية التى هى ثمرة حكمته وعدالته .

من أجل ذلك نسمع الرجل .. يقول له :

يا أمير المؤمنين .

ولم يناده كما ناداه من قبل : يا عمر !!

● لماذا لم يبطش بالرجل :

ونتساءل عن سر هذا الصدر الواسع الذى قبل النصيحة على ما فيها من قسوة ؟

أ - لقد كان الحاكم فى المسجد .. وللمسجد وهو بيت اللّه تعالى إيحاءاته المانعة من القسوة .. والتى يتضاءل فى رحابه الإحساس بالمنصب .. على عكس ما يحدث فى مواقع العمل اليوم من الحجاب ، والحراس .. من كل ما يزين العنف ، والسطوة ، والتفرد ، والتصدى لكل بادرة تخدش الأبهة الكاذبة .

ب - لقد كان عمر صاحب نفس لوامة طالما عذبته .. وإذن فقد ضرب الرجل بنصيحته على وتر حساس فاستيقظ على صوت الحق ، فيما يشبه الترحيب برجل يهدى إليه عيوبه .

جـ - لم تكن خشونة النقد منبعثة من مصلحة شخصية .. كما لم تكن تصفية حسابات قديمة .. وإنما كان عليها من الإخلاص شاهد ودليل .

د - لم تكن الشكوى كيدية .. بقدر ما كانت موضوعية .. مدعومة بأسبابها .

● لجنة تقصى الحقائق :

لقد طويت المسافات بين الرئيس .. والمرءوس فذهب الخوف .. ثم أطلت الحقيقة مشرقة واضحة .

وليس الأمر كما قد يحدث اليوم من الرهبة الناشئة من بعد المسافات بين مختلف الرتب .. وما يثمره من إضمار الحقيقة خلف الصدور خوفاً من المحذور !

وأصدر الخليفة بتشكيل لجنة تقصى الحقائق ، من الأنصار ، ولم يكن الشاكى عضواً فيها ، لتبحث الأمر فى حيدة تامة .

● المصريون عند حسن الظن بهم :

كانت الشكوى من والى مصر ..

ولقد تأكدت لجنة تقصى الحقائق من صحة الدعوى ، بعدما أعلن المصريون رأيهم فى صراحة تامة شاهدة بما ذهب إليه الشاكى .

ونلاحظ إختفاء معنى التشفى إزاء العامل المشكو ، فلم تصدر الأوامر بالقبض على المتهم وإن بدا إخلاص المدعى .. وإنما كان هناك أمل فى أن يكون الوالى بالعهد وفيا .. لتظل الأمور ماشية على السداد .. وتلك غاية المراد .. وذلك قوله :

(فإن وجدتماه بنفذ ما اشترطت عليه .. فلا تكلماه ..)

وكأن شيئاً لم يكن .. لتبقى الثقة المتبادلة قائمة على أصولها ، فلما وجداه قد نكث العهد .. نفذا أمر الخليفة فيه .. وعادا به إلى عمر رضى اللّه عنه .

● المحاكمة :

تأكد لعمر رضى اللّه عنه ان واليه قد أخل بواجبات الوظيفة :

سمن الرجل إلى حد تغير ملامحه .

وبدا لونه أبيض مما أكل من حقوق الرعية .

وعزلته الرفاهية عن القاعدة ، فلم يعد يهتم بأمورها ، بل سخرها لخدمة أهوائه .

● معنى العقاب :

جاءت نتيجة التحقيق بإدانة الرجل .. وكان لابد من العقاب الذى قرره عمر فكان ناجعاً قاطعاً لأطماع كل من تسول له نفسه الإنحراف :

أ - لقد نبت لحم العامل من سحت فالنار أولى به .. فليذهب هناك فى وهج الحر .

ب - بعد أن لبس الحرير .. فليلبس الخيش .

جـ - لقد اعتاد على أن يضغط على « الزر » فيهرع إليه الخدم يتدافعون بالمناكب فليتحول اليوم إلى خادم .. يخدم الشياه النافرة .

د - كان يجلس فى « التكييف » .. فليجرب الآن وقدة الحر .. ليدرك معنى النعمة التى كفر بها .

هـ - ويرى الناس رأى العين « المحافظ » يصبح واحداً من حفاة الرعاة .. فيكبر معنى العدل فى قلوبهم .. وتعمق محبة الحاكم فيها .

● إيجابية العقاب :

لقد أثمرت العقوبة ثمرتها إذن ..

فلم تكن تشهيراً ، بقدر ما كانت تقويماً .. من حيث درست طبيعة الوظيفة ، وطبيعة الرجل .

أى ان الحاكم هنا يشخص العلة .. ثم يطب لها بما يلائمها .. ولا يعالج عشوائياً .. على نحو يدمر ما بقى من عافية فى كيان المخطئ .. ويعنى ذلك عودة المخطئ إلى الصف تائباً .. من حيث كانت العقوبة تأديباً .. ولم تكن تعذيباً .. وهذا هو الذى حدث .

● الدرس البليغ :

فهل لنا من سبيل إلى مثل حكمة عمر رضى الله عنه ؟

لو أن الناس رأوا الرجل الأول فى الإقليم .. يخطئ .. ثم يعود إلى عمله « بوابا » على مكتب المحافظ الجديد يعود بلا حراس ولا سيارة .. لو حدث هذا لما كان فى الولاة ظالمون !

ولقد فعلها عمر رضى الله عنه .. عندما عزل المحافظ .. وعينه من جديد راعى غنم .. ولو كان هذا الوالى قائداً فى الجيش لما تورع عمر أن يعود به « خبازاً » فى سلاح خدمة القوات المسلحة !

لقد هلل بعض الكاتبين لما حكمت المحكمة بتغريم بنت ملكة بريطانيا قدراً من المال .. لما خالفت قانون المرور .. ثم سحب رخصة القيادة منها .. وحرمانها من القيادة سنتين .

وماذا يكون ذلك أمام صرامة الحكم الإسلامى وحكمته معاً فى معالجة الأمور ، ومواجهة الإنحراف .

لقد صار خالد بن الوليد .. القائد المظفر .. جنديا عاديا تحت إمرة أبى عبيدة .. ونهض بلال الحبشى .. وفك عمامة القائد القرشى !

وقد يحدث اليوم أن نفتح النيران على مسئول متهم .. ثم تسكت النيران يوما .. ويتمخض الجبل فيلد فأراً .. يلد حكماً لا يقطع دابر الفتنة .

أما فى السياسة العمرية :

فالتحقيق فى صمت .. وإعطاء المتهم فرصة الدفاع .. وبيان وجهة نظره .. ثم لا بأس إذا ما تاب أن يعود إلى وظيفته كما كان .. وربما أحسن ما كان !

● ما أحوجنا إلى « درة » عمر :

أحس بالراحة دائماً .. كلما رأيت عصا الحاكم تهوى على رءوس الناكبين عن الحق .. المتاجرين بأقوات الشعب .

وأحس بسعادة أكبر عندما يكون الواقف فى قفص الإتهام شخصية كانت تشغل منصباً مرموقاً .. فأثرت على حسابه .. ومن ورائها الولد والعشيرة

ينهبون .. ثم إذا بيد القانون تطولهم ، لتناقشهم الحساب .. وعلى الملأ .. فإذا بمعنى العدل يتوهج من خلال الضباب مؤكداً يقظة الحاكم .. ورادعاً فى نفس الوقت كل من تسول له نفسه تكرار الخطأ .

وفى الوقت الذى تلاحق الحكومة صور الإنحراف بغية القضاء عليها .. أرى من الواجب أن نعينها على أمر اللّه بتقديم النماذج الطيبة التى أثرت فى مجرى الحياة .. حين جعلت من العدل أساس الملك .. ومن النزاهة ركيزة الشخصية .. ونصبت من نفسها قدوة حسنة فى مجال الحفاظ على مال الشعب .. والضرب على الأيدى العابثة به .. ولو كانت يد الأولاد والأحفاد .. فكانت بذلك تطبيقاً عمليا لقوله صلى اللّه عليه وسلم :

(ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة)

● الحاكم النزيه :

كان عمر رضى اللّه عنه أعف الناس عن المال العام : ما امتدت إليه يده .. ولو كان معسراً .

ومع أن ليله ونهاره كانا لخدمة الأمة التى لم تترك له لحظة يعمل فيها لحساب نفسه .. مع هذا ما فكر حتى بالاقتراض من خزينة الدولة وهو حقه المكفول .. مادام قضاء الدين مقرراً سلفاً !

أرسل عمر إلى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه - يقترض منه - أربعمائة درهم ، فقال عبد الرحمن : اتستسلفنى وعندك بيت المال ؟ ألا تأخذ منه ثم ترده .

فقال عمر : إنى أتخوف أن يصيبنى قدرى - أى أموت - فتقول أنت وأصحابك : اتركوا هذا لأمير المؤمنين ، حتى يؤخذ من ميزانى يوم القيامة .

ولكنى أتسلفها منك لما أعلم من شحك - ! - فإذا مت جئت واستوفيتها من ميراثى !!

فانظر كيف تورع الموظف العام فصرف النظر كلية عن « السلفة من خزينة الدولة » وآثر أن يقترض من ابن عوف .

لقد خاف من إشفاق الصحابة عليه لو مات .. وما يمكن أن يترتب على هذا الإشفاق من إعفاء عمر من قضاء دينه نظير ما قدم للأمة من خدمات .. وما ينتج عن هذا الإعفاء من ضياع حسناته يوم القيامة .

ولقد تردد حتى وهو يتخير من أصحابه من يقرضه من الأغنياء فقصد بالذات عبد الرحمن بن عوف لما يعرفه من بخله الذى سوف يحمله على إستيفاء دينه .. ثم هو يواجهه بذلك فى صراحة لا تخدش المودة الجامعة بين رجلين كلاهما يملك إخلاصاً ما نعاً من التأثر مهما كان الخطاب خشناً !

● الخليفة يحاكم ولده :

عندما كان أبو موسى الأشعرى واليا على الكوفة إستدان ولد لعمر رضى الله عنه مالا من خزينة الدولة ، ووافق أبو موسى على ذلك ، على أن يرد الدين من بعد .

وتاجر ابن الخليفة وربح .

لكن العيون الساهرة ، والحاشية المؤمنة أبلغت عمر بما حدث .. فاستدعى ولده . وبدأ التحقيق الفورى :

إنك حين إشتريت انقص لك البائعون فى الثمن ، لأنك ولد أمير المؤمنين .

ولما بعت زاد لك المشترون ، لأنك ولد أمير المؤمنين .

ولم يسمح لابنه بمجرد الدفاع عن نفسه فى قضية واضحة المعالم .. وأصدر قراره قائلاً : لا جرم أن كان للمسلمين حق فيما ربحت .

أ - ثم قاسمه نصف الربح .

ب - واسترد منه السلفة لتعود إلى خزينة الدولة .

جـ - ثم وجه إليه لوماً شديداً حتى لا يعود إلى مثله أبداً .

د - ثم اشتد على المحافظ « أبى موسى » الذى قدم لابن أمير المؤمنين « التساهيل » حتى حصل على القرض !!

• اليقظة الدائمة :

بهذه المحاكمة السريعة .. والتى يتولى فيها المسئول شخصياً كف ولده عن المال العام .. حمى الخليفة نفسه وولده من محاكمات مقبلة كان من الممكن أن تزج به وولده فى ظلمة السجن .. كما يحدث فى أيامنا .

وما أسعد المسئول النزيه .. المفتح العين والأذن : يرى الانحراف فى بواكيره الأولى ، وقبل أن يستفحل ، ليقضى عليه ، وليحمى فى نفس الوقت مجتمعة من جرثومة فساد ننميها بالتجاهل ، والمجاملة ، والتستر ، حتى إذا وقعت الواقعة ، يتلفت الجانى فلا يجد إلا الندم .. ولات ساعة مندم .

• يقظة المرءوس :

ولن تتحقق النزاهة بالحاكم وحده .. وإنما بالمحكوم النزيه اليقظ الشجاع .. والذى لا يبيع دينه بدنيا غيره .

وحين يتوفر المسئول الورع .. وحين يختار حاشيته من أصحاب الضمائر الحية فإن الأمور ستجرى على ما يريد الحق .

وكم سمعنا عن موظفين تورطوا فى إنحرافات .. وخاصة فى مجال المال .. فلما ظهرت خيانتهم حاولوا التعلل بأنهم كانوا واقعين تحت ضغط المسئول الكبير .. وهيهات ولكن التاريخ الإسلامى حافل بما يفند هذه المزاعم .. غنى بالنماذج الشجاعة فى الحق .. مهما كانت النتائج المتوقعة : وذلك أثر من آثار السياسة العمرية .

• الرئيس يأمر ، والمرءوس يرفض :

أراد عثمان رضى اللّه عنه أن يقرض رجلا من الخزينة العامة للدولة .. وطلب من « المدير المالى » أن يسهل الحصول على هذا القرض ..

وإذا كنا على يقين بصدق نوايا الخليفة ، وثقتنا كاملة فى ورعه وتقواه ، وإقتناعه بصحة ما ذهب إليه .. إلا أن ذلك لا ينسينا موقف « المدير المالى »

الشجاع والذى كان موقفه درسا ينبغى أن يذكر فيشكر ، لقد رفض الخازن تنفيذ طلب الخليفة ! فلما قال له عثمان منكراً : أتأبى ذلك وأنت موظف عندنا ؟ !! أسرع الخازن إلى المسجد وأعلن على الملأ : أيها الناس : لقد زعم عثمان انى خازن له ، وإنما أنا خازن بيت مالكم ، لا بيت ماله !! وها هى ذى مفاتيح بيت المال أردها إليكم . ثم رمى بالمفاتيح وخرج !!

لقد خسر « المدير المالى » وظيفته .. لكنه كسب شرفه .. وأعفى نفسه وولده من سبة الإنحراف ، والتبعية ، مؤثراً أن يكون ذكراً حسناً لمن وعى هذا الدرس .. هذا الدرس الذى ما زال يملأ وعى الأمة الإسلامية وخاصة خزان المال فيها .. ليوازنوا بين دراهم معدودة يفرون بها فى غفلة القانون .. ثم تكون الضربة من بعدها قاتلة ، وبين عفة اليد ، وسلامة القلب ، وطيب الذكر ، والتى تبقى ثروة .. لا تفنى .

لقد كان الخازن فى موقعه المرموق قريباً من الخليفة محسوداً من زملاء يتمنون أن لو كانوا مكانه !!

وإذا كان قد ترك مكانه شاغراً بمحض إختياره .. وإذا لم يعد يسمع أو يرى مظاهر الترحيب و « زفة » المتابعين حوله فى حله وترحاله .. فيكفيه إنه وإن خسر المظاهرة فى الديوان ، فقد كسب خارج الديوان احترام الجميع ، وتربع فى قلوب تقدر المخلصين قدرهم ، ولا تنسى فضائلهم .



الفصل الثالث

من قواعد أختيار أرباب السنان وأصحاب اللسان

كان إختياره رضى اللّه عنه للقواد العسكريين دقيقاً .. لأن شخصية القائد العسكرى وما تتمتع به من خصال الشجاعة والحكمة .. لها دورها المتميز فى تحقيق النصر ، بقدر ما يكون خطؤها اليسير باباً إلى شر مستطير ، وبنفس القوة كانت متابعته لدعاة الإصلاح نابعة من تقديره لأثر الأسوة الحسنة المتمثلة فيهم ، ومن ثم كانت رقابته شديدة ، تحاشياً للآثار المرة المضرة بمسير الدعوة والدولة .

● إختيار القواد :

وتتلخص شروطه التى جعلها أساس اختيار القواد :

أ - أن يكون وثيق الصلة بربه تعالى .

ب - خبرته الإدارية .

جـ - ماضيه المشرف فى خدمة الدعوة .

د - لياقته العسكرية .

● فى مجال التطبيق :

أراد رضى اللّه عنه ان يختار قائداً للجيش الذاهب إلى حرب الروم . وعندما دخل المسجد يوما ، رأى رجلا يصلى صلاة خاشعة ، فأعجب به ، وزاد إعجابه لما رآه مفتول الذراعين ، مرفوع القامة ، قوى العضلات ، وسأل رضى اللّه عنه من هذا ؟ فقيل له : هذا النعمان بن مقرن . فقال عمر : على به .

ولما وافى النعمان قال له عمر : قد انتدبتك لأمر عظيم ، فقال النعمان : يا أمير المؤمنين : إن كنت تريدنى لجمع الصدقات ، فإنى لا أصلح لذلك ، وإن كنت تريدنى للجهاد والإستشهاد ، فإنى أصلح لذلك .

فقال عمر : بل أردتك للإستشهاد ، ثم ولاه إمارة الجيش .

لقد تم إختيار القائد هنا بناء على سلامة بنيته العسكرية والإيمانية معاً .

ولقد صدق ظن عمر رضى اللّه عنه فيه ، حين أعلن النعمان زهده فى وظيفة

المسئول المالى ، وهى مما يطمح إليها الطامعون .. وفضل أن يكون جنديا يجود بروحه فى ساحة الوغى .. فكان أن صدر قرار التعيين .. لما التقت رغبة القائد مع رغبة الحاكم على كلمة سواء .

● وأبو عبيدة :

لقد عزل رضى الله عنه خالدا ، وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح .. ولقد كان لهذا الاختيار ما يسوغه :

فأبو عبيدة قائد ماهر ، له ماضيه العسكرى المرموق .

وكان ممن رشحهم أبو بكر للخلافة .

بل كان أميراً للجيش الذى فتح مكة .

وهو الذى قتل والده بيده يوم بدر .

ثم هو أمين هذه الأمة بشهادة الرسول ﷺ : « لكل أمة أمين ، وإن أميننا أيتها الأمة : أبو عبيدة بن الجراح » .

● القواد عند حسن الظن :

كان إختيار عمر رضى الله عنه قطعة من عقله ، وكان أيضاً أمارة إخلاصه ، فصار بركة على المسلمين .

أما فيما يتعلق بالنعمان بن مقرن : كان أول خطوة نحو المعركة أن أمر أصحابه أن يتوضأوا ، ويصلوا قبل التحام الجيشين ، وبعد الصلاة طلب إليهم أن يرفعوا أيديهم قائلا لهم :

أيها الناس : إنى داع فأمنوا :

ثم دعا : اللهم أرزق النعمان إستشهادا فى سبيلك ، تفتح به على المسلمين .

وردد الجميع خلفه : آمين .

ثم اندفع بجنده ، ولما أصيب قال لمعقل بن يسار وهو يجود بآخر أنفاسه : هل تم النصر ؟ فلما أجاب معقل : نعم . قال النعمان : الحمد لله ، أكتبوا لأمير المؤمنين ، ثم فاضت روحه .

لقد تحقق النصر المبين .. لما وجدت القيادة الأمينة التى ترشح للمهام العظام أكفاءها العظام .. وكان النعمان عند حسن الظن به :

إسترخص روحه ، وعلى الملأ ، ليبقى الحق أبداً ، وتراجعت كل إهتماماته حتى وهو يودع الحياة .. ليستمر ولاؤه للمعركة التى كانت حياته أولا وأخيراً .

ولم يكن إسترخاص الحياة طلبا لمجد شخصى ، أو تظاهراً بالفتوة الطائشة ، وإنما تم ذلك كله ليفتح الله على المسلمين ، وليز الإسلام .

● خالد ، وأبو عبيدة :

لم تكن الوظيفة تشريفاً .. بقدر ما كانت تكليفاً يحمل شاغلها فوق ما يطيق كما قلنا آنفاً .

وفى قصة عزل خالد وأبى عبيدة رضى الله عنهما فى عهد الخليفتين الراشدين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .. ما يؤكد هذا المعنى ، ويكشف فى ذات الوقت كيف كان الحاكم والمحكوم معاً .. خاضعين لكلمة الحق دون سواها .

كتب أبو بكر رضى الله عنه - إلى أبى عبيدة بن الجراح - قائد جيش المسلمين فى الشام فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الله بن أبى قحافة إلى أبى عبيدة ابن الجراح ، سلام الله عليك .. أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه واسمع وأطع ، فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد) .

وماذا حدث من خالد فى مثل هذه اللحظة التى قد تطيش فيها العقول بعيداً عن الحكمة والسداد ؟

حين وصل خالدا كتاب أبى بكر بتوليه قيادة جيش المسلمين فى الشام كتب إلى أبى عبيدة : يقول له : (بسم اللّه الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة بن الجراح ، سلام اللّه عليك « أما بعد » فقد أتانى كتاب خليفة رسول اللّه تأمرنى بالسير إلى الشام ، والقيام على جندها ، والتولى لأمرها ، واللّه ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذى كنت عليه : لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمراً ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك) .

وقبل واقعة اليرموك بعشرين ليلة مات الخليفة الأول أبو بكر رضى اللّه عنه ، ويتولى الخلافة عمر بن الخطاب ، وبينما واقعة اليرموك قائمة على قدم وساق وصل إلى أبى عبيدة كتاب من عمر رضى عنه يقول فيه :

(بسم اللّه الرحمن الرحيم .. من عبد اللّه عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح ، أوصيك بتقوى اللّه ، اللّه الذى يبقى ولا يبقى سواه ، الذى هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور .. وقد إستخلفتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم ، وبحقى الذى عليك لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم مكانا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ، وإياك وإلقاء المسلمين فى التهلكة ، وقد إبتلاك اللّه بى وإبتلانى بك ، فغض بصرك عن الدنيا واله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكه كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم) .

وإنك لتتأمل وقائع العزل والتعيين هنا .. فلا تراها دائرة مع هوى متبع أو دنيا مؤثرة .. أو حزازات شخصية ، وإنما هو الحق الذى كان أعز من الرجال . ومصلحة الأمة والدعوة تفرض نفسها بغض النظر عن العواطف الشخصية .

وعندما وصلت رسالة عمر الآنفة إلى أبى عبيدة كانت الأوضاع مختلفة عما كانت عليه عندما علم خالد بخبر تعيينه مكان أبى عبيدة زمن أبى بكر رضى اللّه عنه ، ولأن المعركة لا تزال مستمرة والقتال محتدماً والأمور ماضية إلى غايتها ، فقد أخفى أبو عبيدة أمر الرسالة حفاظاً على الدفعة القتالية الماضية

فى طريقها إلى تحقيق النصر للمسلمين ولم يعلم خالدا بهدا وتركه يتولى القيادة بنفسه من أجل المصلحة العامة حتى يتحقق النصر وتنتهى المعركة وتستقر الأوضاع .

وانتهت المعركة بعد عشرين يوماً من وصول رسالة الخليفة إلى أبى عبيدة وخلال هذه المدة كانت أخبارها تدور حتى وصلت إلى خالد هادئة رقيقة .

وأنت واجد فى هذه الوثيقة التاريخية حقائق تشكل فى النهاية دستوراً ينبغى أن يسير على هداه الحكام والمحكومون .. مهما كانت مواقعهم :

١ - يوصيه بالتقوى العاصمة من الزلل ، المعينة على مقاومة إغراء المنصب ، مذكرا إياه بنعمة الإسلام الداعية إلى شكرها عن طريق الحفاظ على الجند من التهلكة .

٢ - البعد عن كل ما يتسابق فيه غيره من طلاب الدنيا ، ليظل مشدوداً إلى المعركة بكل كيانه .. حرصاً منه على ما يبقى من عمر الإنسان .. بعد أن وافته الأنباء بمصارع الغابرين الناكبين عن الصراط المستقيم .

٣ - ربما كانت تغيير القيادة داعية إلى شئ من الزهو ،، ومن هنا يعمق إحساسه بمسئوليته أمام الحق سبحانه وتعالى .

● القواد على مستوى المسئولية :

وإذ يبدو خالد فى اللحظة الحرجة ملتزماً ، متماسك الشخصية ، فإن أبا عبيدة يؤكد أخوتهما ، وأنه معه ماضيان إلى اللّه تعالى عن طريق طاعته وإجتناب معصيته ، والجهاد فى سبيله .

وكان من الممكن أن تراق الدماء أنهاراً ، وتسقط الدولة لقمة سائغة فى يد أعدائها ، لو كان القواد المسلمون يبحثون عن الشهرة ويعملون للدنيا ، ولكنهم جميعاً يعملون لله تعالى ، وحياتهم كلها مرصودة للحق الذى يجب أن تعلو رايته .

ومن هنا لم يكن تذمر أو ضيق ، وإنما هى الطاعة لله ولرسوله وللحاكم المؤمن ، كان ذلك هو الدافع والمحرك ، فلم تعد للأمزجة الشخصية كلمة مسموعة ، وإنما الأمل المتجدد دائماً : أن تظل ألوية الحق مرفوعة !

وفى هذا الوقت بالذات يرسل الخليفة عمر إلى الأمصار ما يهدئ الخواطر ، ويقف بخالد موقفه المرموق ، بعيداً عن كل شائعة قد تستغل الموقف للتشويه والتجريح .

فقد كتب إلى الأمصار يقول :

(إنى لم أعزل خالدا عن سخط أو خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن اللّه هو الصانع) ، وقد قدر عمر ابن الخطاب خالد بن الوليد بعد ذلك تقديراً عظيماً فإنه لما فتح خالد (قنسرين) تحت قيادة أبى عبيدة وإنتهى الخبر إلى عمر قال :

(أمر خالد نفسه ، رحم اللّه أبا بكر كان أعلم بالرجال منى) .

● بين القائد الجديد ، والقائد القديم :

ولم يقتصر الأمر على « زيارة ودية » يقوم بها القائد الجديد لسلفه خالد ..

وإنما هو حديث الصفاء الذى يكشف عن المعدن الأصيل .. والولاء الحق لله تعالى ونصرة دينه فى كل موقع .

دخل خالد على أبى عبيدة فقال : « يغفر اللّه لك جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى وأنت تصلى خلفى والسلطان سلطانك » .

فقال أبو عبيدة : « يغفر اللّه لك ما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وإنقطاع ، وإنما نحن إخوان وما يضير الرجل فى دينه ولا دنياه أن يلى عليه أخوه ، بل يعلم الوالى أنه يكون أدناهما إلى الفتنة إلا من عصم اللّه عز وجل وقليل ما هم » .

وأنت واجد كيف يعود القائد .. ليكون جنديا .. تحت أمرة أحد من أتباعه

.. وكيف يصعد الجندى إلى قمة المسئولية .. فلا يتغير الموقف لأن الولاء للحق دائماً :

فمن كان فى المقدمة .. فهو فى المقدمة

ومن كان فى الساقة .. فهو فى الساقة

المهم أن يبقى الحق عالياً .

ومن دروس هذا الموقف ما أشارت إليه رواية أخرى [١] :

(عندما ولى عمر الخلافة ، كتب إلى أبى عبيدة يوليه إمارة الجيش العامة ، ويعزل خالد عنها .

وكان الجيش على حصار دمشق ، أو فى اليرموك « روايتان » .

فكتم أبو عبيدة الأمر ، وكبر عليه أن يظهره قبل أن يتم لهم النصر ، ولما أبطأ على عمر الجواب ، كتب إلى أبى عبيدة ثانية كتاباً يأمره فيه بأن يقرأه على ملأ من المسلمين . وفيه الإذن بأن يعتقل خالد ، بعمامته ، ويحاسب على ما كان منه فى إمارته .

فهابه أبو عبيدة : لشرفه « سيد بنى مخزوم » ، وشجاعته ، وبلائه فى الحرب ، وحب الجيش له .

ولكنه لما قرأ الكتاب .. قام بلال الحبشى من فقراء الموالى « العتقاء » وحل عمامة خالد ، واعتقله بها ، وسأله عما أمر به عمر ، فخضع وأجاب .

فانظروا ما فعل الإسلام بهؤلاء الكرام :

يقوم مولى من الفقراء إلى السيد القرشى العظيم ، والقائد الكبير ، فيعقله بعمامته ، على أعين الملأ الذين كان أميرهم وقائدهم ، ويحاسبه فيجيبه عن كل ما سأله ، وروى أنه بعد أن أطاع وأجاب داعى الخليفة ، أعاد إليه بلال

---

(١) تفسير المنار - سورة آل عمران .

قلنسوته وعممه بيده قائلا : نسمع ونطيع ، ونفخم موالينا . « المولى هنا بمعنى السيد » .

وروى أيضاً أن عمر استحضر خالداً إلى المدينة واعتذر له بعد العتاب بأنه لم يعزله ، ويأمر فيه بما أمر لريبة ، وإنما رأى أن الناس افتتنوا به ، وخاف عليه أن يفتتن بهم) .

ومن تدبير اللّه تعالى أن ينهض بلال بالذات .. لتتم الرواية فصولا : لقد ظلم بلال من قبل .. وكان قطرة تائهة فى الخضم الواسع الموار .. وبالإسلام .. سامت كبار الصحابة .

ومن ثم فهو أشدهم إحساساً بقيم العدل والمساواة .. فكان أسرعهم إلى مساءلة خالد .

وأمر آخر :

إن بلالا لم يستمد صلاحية المساءلة من عصبية أو غنى ، ولكن اليد التى تحل عمامة خالد وتعتقله بها ، هى اليد التى تحمل السلاح دفاعاً عن الحق .

إن الذين يبذلون ، هم الذين يحاسبون . أما الذين يتشدقون بالكلام فى الظل الظليل ، فليس لهم من هذه الصلاحية نصيب .

فانظر إلى آثار التربية العمرية ، التى جعلت من الإيمان مقياس أقدار الناس ، وإلى أى حد ساد الحق والعدل ، بحيث لم يعد هناك من هو فوق النقد والمساءلة ، حتى خالد بن الوليد يتعرض لهذا الموقف العصيب ، فيتحمله بلا تذمر .

وهو خالد : الذى تدرس عسكريته فى كل معاهد الدنيا . والذى كان له من ماضيه العسكرى ما يعفيه من هذه المساءلة وهو القرشى العظيم ، هذه المساءلة التى كانت من قبل بلال الحبشى ، وعلى ملأ من الناس .

بل إنه ليؤكد ولاءه للحق ، فلا يحمل على عمر انتقاماً لنفسه ، وإنما هو العتاب الرقيق المختوم بشهادة حق يؤديها تضع عمر فى مكانه الصحيح :

روى إنه قال بعد عزله : ولانى عمر على الشام ، حتى إذا صارت حنطة وعسلا عزلنى .

فقال له رجل : قولك هذا فتنة يا خالد ، فقال منصفا عمر : لا فتنة وعمر حى !!

● عندما يعين الحاكم على أمر اللّه :

ولم تكن هذه المبادئ لتثمر ثمرتها إلا إذا كان الحاكم صورة لها معبراً عنها .

وكثير من الأوامر والنواهى يلقيها رئيس المجموعة تبدو سليمة خالية من العيب .. ولكنك تبحث عن أناس يطبقونها فلا تجد ، لأن الذى يصدرها لم يأخذ نفسه بها وما أكثر ما تسمع كلاما كالعسل ، وترى فعلا كالأسَل [1] !

إن نجاح عمر رضى اللّه عنه مردود بالدرجة الأولى إلى أنه كان قدوة فى باب الخير ، وكما تنمو « بللورات » الكريستال تلقائيا فى الصخرة الصماء ، نمت إيجابيته رضى اللّه عنه فى صفوف الأمة .

إن الأمة الإسلامية غير شحيحة بالرجال ، ولا ضنينة بالمواهب ، وهى فقط تحتاج إلى : القدوة .

إن العالم لا يحتاج إلى الكلام ، وإنما يحتاج إلى القدوة ، فكل أحمق قادر على الكلام !

ألا وإن لغة العمل أعلى صوتاً وأقوى تأثيراً من لغة الكلام .

وقدرة القائد تساعده على الصعود إلى القمة ، ولكن .. ليبقى فوق القمة لا بد له من أن يظل قدوة ينسج الشعب على منوالها .

---

(١) الأسل بفتح السين : نبات دقيق له أعضاء بلا ورق ولا شوك .

ولقد كان عمر رضى اللّه عنه قمة لا تبارى .

فمن أمثلة اعترافه بسلطان الأمة عليه وخضوعه لرقابتها قوله من خطبة : «أيها الناس إذا رأيتم فى إعوجاجاً فقوموه » . فقام إليه رجل من الحاضرين وقال : « واللّه يا عمر لو رأينا فيك إعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

فلو كان عمر اكتفى بسماع هذه الكلمة وتجاوز عن مؤاخذة قائلها لعد ذلك منقبة له يتناقلها الناس ويعدونها دليلا على وفور عقله ، وسعة حلمه ، ولكنه أجابه بقوله : (الحمد للّه الذى جعل فى هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه) !

{ هذه الإجابة لها مغزى اجتماعى خطير الشأن ، وهو تسويغه العمل على إزالة الجور ، وهذا من ملك عظيم غاية فى إحترام الأوضاع المقررة ، والسنن المعتبرة ، لو فاز بمثلها شعب من الشعوب المستميتة فى تأييد سلطان الأمة على لسان ملك عظيم من جنسها لأقامت لكلمته هذه نصباً فى أكبر ميادينها ، ولبنت له صرحاً من الثناء الخالد على الدهر .

التسليم برقابة الأمة يقتضى الديمقراطية ، فهل كان عمر ديمقراطياً بالمعنى الذى كان يفهمه خطباء الثورة الفرنسية ؟

نعم [1] فقد قال كعب الأحبار :

« نزلت على رجل يقال له مالك ، وكان جارا لعمر بن الخطاب ، فقلت له : كيف بالدخول على أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس عليه باب ولا حجاب ، يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلم الناس ! » .

---

(١) الإجابة بنعم تظلم سيدنا عمر رضى الله عنه ، تظلمه أولا حين تقارن ديمقراطيته بما كان من الثورة الفرنسية وأين الثرى من الثريا .

وثانيا : لأن الحرية التى نادت بها الثورة الفرنسية لم تكن لها أصولها الإنسانية العالمية .. والتى جاء الإسلام بها وكان عمر رضى الله عنه صورة لها .. إن الديمقراطية الفرنسية فى أعلى مستوياتها يشرفها أنها كانت صدى خافتاً لما جاء به الإسلام فى هذا الباب .

وعن الحسن البصرى قال :

« كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام ، فقال له الرجل : إتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين إتق الله ؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لى ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها ! » .

تأمل فى قوله : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ! إنها والله لكلمة من أنبغ الكلمات الإجتماعية ، وهى كما تدل على مبلغ إحترام عمر للمعارضة ، وهى ركن من أركان الحياة السياسية ، تدل أيضاً على تجرد الأمة التى تتهيب هذا الركن من الخير ، وقوله : « لا خير فينا إذا لم نقبلها » تقرير بأن الحكومة التى لا تطيق المعارضة تكون مجردة عن الخير أيضاً ، لذلك تجد فى كل مجلس نيابى فئة من غير حزب الحكومة تقوم بالمعارضة فيه ، ويحترم رأيها ويهتم به الحزب صاحب الكثرة .

● مثل عليا فى الديمقراطية :

أبلغ من كل ما مر فى الدلالة على فهم عمر للديمقراطية ، أنه لما دعى إلى بيت المقدس ليتفق والمدافعين عنها على التسليم ، كما شرط عليه ذلك ، شخص إليها على بعير كان يتعاقب عليه هو وسائسه فى الطريق ، ولما شارفوا المدينة كان الدور للسائس فكان راكبا وأمير المؤمنين آخذ بمقود البعير ، فقال له خادمه : لو نزلت أنا وركبت أنت حتى لا تقابل الناس على هذه الحال ! فلم يجبه أمير المؤمنين إلى طلبه ، وقدم على مستقبليه راجلاً يقود البعير لخادمه ، فكانت مفاجأة محيرة ، ولكن أحداً لم ينبس بكلمة لعلمهم من هو عمر وما هى ديمقراطيته .

وأبلغ مما مر فى الدلالة على فهم عمر للديمقراطية ، كما يريدها الإسلام مطلقة، أنه لما كان فى بعض إنتقالاته بفلسطين عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره وخلع نعليه فأمسكهما بيده ، فخاض الماء ومعه بعيره . فقال له أبو عبيدة كبير قواده : قد صنعت يا أمير المؤمنين صنعاً عظيماً عند أهل الأرض ، فصكه

عمر فى صدره وقال : « أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم اللّه بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير اللّه يذلكم اللّه ! » .

وأعظم مما مر وأحفله بالمعانى التى لا يدركها إلا الآحاد ، ما رواه الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق ، قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر ، وهو معتجز بعباءة (أى ملتف بها) ، يهنأ بعيراً من إبل الصدقة (أى يدهنه بالهناء وهو القطران) .

فقال عمر : « يا أحنف دع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين . (الأحنف هذا سيد بنى حنيفة ، وهو الذى قيل فيه : إذا غضب غضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب) .

فقال رجل : يغفر اللّه لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا . فقال عمر : « يا ابن فلانة وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة ! » .

إن عمر رضى اللّه عنه بقوله : من ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين ، وبتوليه عملا هو من مهن العبيد ، وبدعوته الأحنف ليعمل معه فيه ، قد ضرب الأرسطوقراطية ضربة لن تقوم بعدها لها قائمة فى المسلمين باسم الإسلام قط . وقد تتبعنا سير جميع الملوك النابهين فلم نعثر على مثال فى الديمقراطية يشبه هذا المثال ، وهكذا ثمرات العبقرية تأتى على غير مثال سابق .

ولما أقبل سفراء بيت المقدس لمقابلة أمير المؤمنين عمر ، سألوا أين هو ؟ فأشاروا لهم إليه ، وكان نائماً على الأرض فى ظل شجرة ، فهالهم ما رأوا وأبوا أن يتفقوا مع من هذه حالته ، إستنكارا لها حتى يستأنسوا برأى كبرائهم . فلما رجعوا وقصوا عليهم ما رأوا قال لهم بطريقهم : إرجعوا أدراجكم إنه طلبتنا ، وهذه حليته فى كتبنا .

نقول : ليس هذا من سقوط الهمة ، ولكنها الديمقراطية يضع عمر بيديه أركانها ، ويقيم بقدوته بنيانها . وإذا كان للعظمة معنى يرى بالعين ، فهو ما رآه الناس من أمثال هذا فى سيرة عمر عظمة عبر عنها الأستاذان الفرنسيان «أمن وكوتان » فى تاريخهما العام بقولهما : « إن هذا العاهل الذى كان يلبس ثوبا مرقعاً كانت ترتعد فرائض الملوك عند ذكر اسمه » .

وخطب الفاروق يوماً فقال : « يا أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالا إليكم (أى ولاة) ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شئ سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه » .

فوقف عمرو بن العاص فاتح مصر وواليها فقال : « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين أدب بعض رعيته أإنك لتقصنه منه ؟ » .

فقال الفاروق :

« أى والذى نفس عمر بيده إنى لأقصنه منه ، وكيف لا أقصنه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ؟ » .

إذا تبجحت أمة بأنها تقيم مبدأ المساواة بين الناس فلتكن من هذا الطراز المطلق ، وإلا فهى صورة ناقصة لها كأكثر ما نسمعه عنها وما نراه منها .

● الديمقراطية تسوى بين السادة والعبيد :

من أمثلة المساواة التى كان يقيم عمر حكمه عليها ما رواه الحسن البصرى قال : « حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس ، وصهيب وبلال من تلك الموالى (أى الذين كانوا أرقاء أو أبناء أرقاء) الذين شهدوا بدراً ، فخرج إذن لهم وترك أولئك .

فقال أبو سفيان (وكان من سادات قريش) : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يتلفت إلينا !

فقال سهل بن عمرو ، وكان رجلا عاقلاً : أيها القوم إنى واللّه أرى الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، (يريد دعوا إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ .

ومن أجل ما صدر عن الفاروق فى تنفيذ مبدأ الديمقراطية المطلقة قوله ، وهو يجود بنفسه ، وقد دعى لأن يعهد بالخلافة لمن يثق به : واللّه لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً ما جعلتها شورى . أى أنه كان يعهد إليه بالخلافة ولا يحيلها إلى الشورى ، وسالم هذا كان مملوكاً لأبى حذيفة .

هنا لا نجد عبارة تصور إكبارنا لهذه الديمقراطية التى تمثل روح الإسلام فى أبدع وأروع صوره .

وشكا أحد أهل مصر إلى الفاروق إبنا لعمرو بن العاص واليها مدعيا أنه ضربه قائلا له : أنا ابن الأكرمين . فلما ثبت لعمر أنه صادق فى دعواه ، أعطاه درته (أى عصاه) وقال له : « إضرب ابن الأكرمين كما ضربك ! ثم التفت للناس وقال لهم : متى إستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

إن الفاروق لم يرد بما فعل أن يذل ابن أحد ولاته ، ولكنه يرفع علم المساواة إلى أعلى ما يمكن أن يصل إليه ، وليس بعد هذا غاية .

● العدل المطلق لا ينافى النظام :

ومن أمثلة حرص عمر على حفظ النظام ما رواه أبو ساعدة الهذلى قال : «رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق ، (أى يبيعونه) ، حتى يدخلوا سكك أسلم (حى بالمدينة) ، ويقول : لا تقطعوا علينا سابلتنا » .

أليس هذا بعينه ما تكلف به الشرطة من تنظيم حركة المرور فى العواصم

اليوم ؟ فلو كنت (كونستابلا) لباهيت بوظيفتى التى وضع أساسها أكرم ملوك الأرض فى أعظم أمة .

قال المسيب بن دارم : « رأيت عمر بن الخطاب يضرب جمالا وهو يقول : حملت جملك مالا يطيق ! » .

فمن لى بمن يبلغ جماعات الرفق بالحيوانات أن عمر بن الخطاب سبقهم إلى سن هذا النظام قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً ؟

وبعد : فإن هذه السيرة التى تتجلى فيها المثل العليا للحكم فى غاية أبهتها ، وتطبق إلى أقصى حدودها ، لا تتأتى إلا إذا كان القائم بها عبقرياً .

نعم : إن عمر لم يفعل أكثر من أن نفذ الأصول التى دونت فى الكتاب ، والسنة ، ولكن تنفيذها على هذا النحو الباهر لا يتأتى إلا من طريق العبقرية فهى وحدها التى تلهم صاحبها المواقف الموفقة فى كل ما يعرض له من الشئون ، وللشئون مآزم لا يغنى فيها مجرد التشدد فى تطبيق حرفية المثل العليا ، فلابد فيها من تصرف وجدانى يضع الأمور مواضعها ، وهناك مجال فسيح للعبقرية .

وإلا فلم قرر علماء النفس وجود عبقرية للحكم ؟ أليست أصول الأحكام القويمة مقررة مرسومة ؟ نعم . ولكن تطبيقها على الحوادث ، وتحويل المجريات إلى سبيلها القيم ، وإستغلال الظروف لمصلحة الجماعة دون الإخلال بسلطان تلك الأصول ، والإستفادة من مرونتها فى حدودها المقررة ، وتعيين مواضع هذه الرخصة وأوقاتها المناسبة ، كل هذه مجالات تتفاضل فيها النفوس ، وتجد العبقرية مكانها العالى منها) [١] .



---

(١) محمد فريد وجدى . مجلة نور الإسلام .

الإمام فى قفص الإتهام

(أتى قوم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالوا : يا أمير المؤمنين : إن لنا إماماً إذا فرغ من صلاته تغنى .

فقال عمر : من هو ؟ فذكروا له الرجل فقال : قوموا بنا إليه ، فإنا إن وجهنا إليه - بالحضور - يظن اننا تجسسنا عليه أمره .

فقام عمر مع جماعة من أصحاب النبى ﷺ ، حتى أتوا الرجل وهو فى المسجد . فلما نظر إلى عمر قام يستقبله وهو يقول : يا أمير المؤمنين : ما حاجتك ؟ ما جاء بك ؟ . إذا كانت الحاجة لنا . كنا أحق بذلك منك أن نأتيك . وإن كانت الحاجة لك . فأحق من عظمناه خليفة رسول الله ﷺ .

فقال له عمر : ويحك ! بلغنى عنك أمر ساءنى . قال : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : أتتمجن فى عبادتك - من المجون - قال : لا .. يا أمير المؤمنين . ولكنها عظة أعظ بها نفسى . قال عمر : قلها .. فإن كانت كلاما حسنا ، قلتُه معك . وإن كان قبيحاً نهيتك عنه . فقال :

وفؤاد كلما عاتبته — فى مدى الهجران يبغى تعبى

لا أراه الدهر إلا لاهيا — فى تماديه .. فقد برح بى

يا قرين السوء ما هذا الصبا — فنى العمر كذا فى اللعب

وشبابى بان عنى فمضى — قبل أن أقضى منه أربى

ما أرجى بعده إلا الفنا — ضيق الشيب على مطلبى

ويح نفسى .. لا أراها أبداً — فى جميل . لا . ولا فى أدب

نفسى لاكنت .. ولا كان الهدى - راقبى المولى . وخافى ، وارهبى

فقال عمر :

نفسى لا كنت ولا كان الهوى - راقبى المولى وخافى وارهبى .. على هذا .. فليغن من غنى) [١] .

● تمهيد :

إذا كانت ركائز الحاكم المؤمن هى : العدل .. وحكمة الإدارة .. فقد كان عمر رضى الله عنه ذلك الحاكم العادل فى صرامة ورحمة .. والذى أدار دفة الأمور طبق سياسة حكيمة .. دقيقة ساهرة .. نافذة ، تهدف إلى ترسيخ دعائم العدل .. دون أن تجرح كرامة الإنسان .

وإذا كان التاريخ الإسلامى الصادق .. هو بعينه الإسلام نافذاً ، مطبقاً على أرض الواقع . فإن فى هذه الصفحة التى نتأملها اليوم .. ما يؤكد قدرة الإسلام على النهوض بالأمة . لو وجد الحاكم الذى يتمثله .. ثم وجد المربون القادرون على البصر بهده المواقف التاريخية . وتوظيفها لإعداد الجيل الجديد .

وإذا كانت الأمم تتخذ من تاريخها رافد ثقافتها .. بما تصوغ حوله من قصص وأساطير .. فقد بقى التاريخ الإسلامى وحده قادراً على الوفاء بهذا المعنى بما يشتمل عليه من صدق هو لحمته وسداه .

يقول أحد الباحثين : (إن التاريخ :

يروى .. ولا يبتدع .

ويحقق .. ولا ينمق .

ويصدق .. ولا يمن .

---

(١) الشاطبى : الإعتصام ج ١

أما القصة فإنها : تختلق وتبالغ ، وتؤثر بالصور الكلامية الخلابة ، ثم ترتب الأحوال ، وتسوق الحوادث ، على حسب الممكن ، لا على حسب الأمر الواقع) .

وإذا كنا فى مثل هذا الموقف الذى بين أيدينا .. قد نلجأ أحيانا إلى الخيال .. فى عرض الواقع .. فإنه الخيال الذى يعين على تصور الحقيقة بجلاء .. حتى تتألق ، وتفرض نفسها :

خـيال إذا أرسـلته إثْرنا فر   اتت بأعـز الآبدات حبائله

وإن سارت الريح الهبوب بجرسه فأخر أكناف الوجود مراحله

• الإمام فى قفص الإتهام :

وظيفة الإمامة من الوظائف الحساسة .. لأن الناس يرون الإسلام من خلاله .. وإذا كان الناس على دين ملوكهم .. فهم كذلك على ملة إمامهم !

وإذا كان إمامهم محل تقديرهم .. فباسم هذا التقدير يكون دائماً فى نقطة الضوء مرآة تعكس حقائق الإسلام .

وإذا كان حق الجماعة ثابتاً فى إمام يعلمهم أمور دينهم .. فإن من واجبهم أن يتعاونوا مع الحاكم ، ليظل الإمام فى موقعه منار هدى .. وحتى لا يؤتوا من قبله ، وإذا فرض هذا التعاون إبلاغ الحاكم بما قد يظنونه انحرافاً عن مقتضيات القيادة الراشدة .. فإن من واجب المسئول عن الدولة والدعوة أن يفتح لهم الباب ، لتظل قنوات الإتصال مؤدية وظيفتها فى البلاغ ، ولتظل القيادة الدينية تباشر سلطانها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإلا .. فإن سريان الإنحراف إلى الداعية ، ثم وقوف الحاشية سداً منيعاً أمام إرادة الإصلاح حتى لا تصل إلى الحاكم .. من شأنه خلخلة الثقة التى لابد منها لنجاح دعوة الإصلاح ..

من أجل ذلك لم يكن غريباً أن يقف الإمام فى قفص الإتهام .. وأن تبدأ معه إجراءات التحقيق علانية .

● طبيعة التهمة :

إن الإمام هنا يؤدى وظيفته على ما يرام .. لكنه إذا فرغ من عمله لجأ إلى الغناء !

والغناء من الأمور الشخصية .. فماذا على الإمام إذا تغنى ؟!

ولكن الإسلام لا يفرق بين الخلل الشخصى ، والخلل الإجتماعى .

وإذا كانوا فى الغرب يفرقون بين ما هو شخصى ، وما هو إجتماعى ، فيتغاضون عن الأول بإعتبار أنه داخل فى إطار الحرية الشخصية ، بقدر ما يتشددون فى عقاب الثانى ..

إذا كانوا يفعلون ذلك .. فإن الإسلام يتصدى للإنحراف .. مهما كان طابعه .. لا سيما إذا صدر عن قيادة دينية مطالبة قبل غيرها بالإلتزام الذى قد يفرض عليها أحياناً أن تتنازل عما لا بأس به .. فراراً مما به بأس .. ونفوراً من رد الفعل الذى أشار إليه الشاعر القائل :

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً   فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

● كرامة الإمام :

وإذا كان المتهم بريئاً حتى تثبت إدانته .. فإن عمر رضى اللّه عنه لم يصدر قرار عزله أو نقله قبل التحقيق .

بل إحتفظ بحقه فى الكرامة فلم يشأ أن يستدعيه حتى لا يظن ان الدولة تتجسس عليه .. وقام هو مع كوكبة من أصحابه إليه فى مجلسه تقديراً للوظيفة حتى يظل شاغلها محل تقدير الدولة .

● المؤمن .. الغافل !

وإذا كان القرآن الكريم يحذر المؤمن من الخوض فى سيرة المؤمنات الغافلات البريئات ، لأنهن لا يستطعن الدفاع عن أنفسهن .. فإن الأيام لتكشف عن حكمة القرآن فى هذا التحذير ، حين يتعلق الأمر بعلماء مخلصين يتخذهم الناس غرضاً ، بينما هم فى الواقع شرفاء أبرياء .

ولقد كان ذلك الإمام من هذا اللون المؤمن الغافل ، والذى أسرع فى شوق وتقدير للخليفة حين رآه وصحبه قادمين .

لقد أشفق على وقت الخليفة ، وطاقته ، وأظهر من تعظيمه ما يثبت حسن طويته ، ونقاء سريرته .

● الخليفة لا يجامل فى الحق :

وإذا بلغ تكريم الإمام للخليفة مداه ، فإن ذلك لم يثن عزيمة عمر رضى اللّه عنه ، ومضى فى تصميمه على مساءلته علانية وعلى رؤوس الأشهاد ، فالحق أولى بالتكريم من عمر !

قال له عمر فى خطاب شديد اللهجة : ويحك ! بلغنى عنك أمر ساءنى ، أتتمجن فى عبادتك ، لكن صدر الخليفة الغاضب يبقى فيه متسع للمتهم ليدافع عن نفسه . ونفى الرجل التهمة ، لما أفصح عن غنائه ، والذى كان حداء نفس لوامة تقيم من نفسها واعظاً مقيماً فى كيان الرجل يؤرقه حتى لا يكاد يتذوق للنوم طعماً .

● الغناء .. الحلال :

إن الحق تعالى يقسم بالنفس اللوامة ..

وهذا رجل صاحب نفس لوامة قوامة ، تثبت قدمه على الصراط ، وتستنزف دموعه فى نغمات شجية ، بمعان شريفة عفيفة استولت على قلب الخليفة نفسه ، والذى أعلن براءة الإمام مما نسب إليه .

بل إنه يندمج فى الدور ، فيعيش مع الإمام على نفس « الموجة » حين لمس فى عمر ذلك الوتر الحساس ، فأنشد نفس البيت فقال مع الإمام :

نفسى .. لا كنت ولا كان الهوى   راقبى المولى وخافى وارهبى

على هذا فليغن من غنى !!